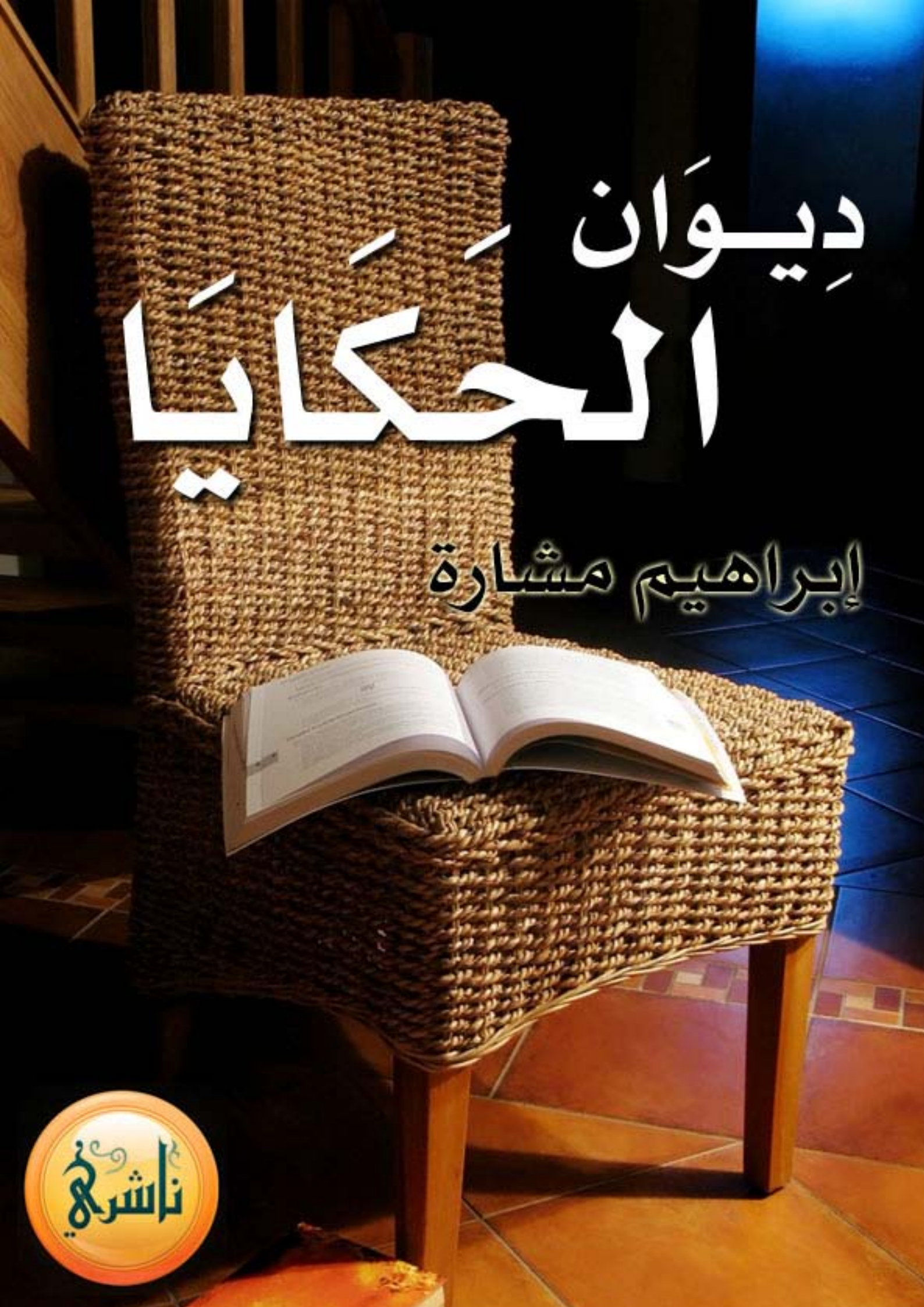

دِيوَان
الحِكَايَا
إبراهيم مشارة
ناشري



© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لدار ناشري للنشر الإلكتروني.
www.Nashiri.Net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب.
نشر إلكترونيا في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠١٠.

يمنع منعا باتاً نقل أية مادة من المواد المنشورة في ناشري دون إذن كتابي من الموقع. جميع الكتابات المنشورة في موقع دار ناشري للنشر الإلكتروني تمثل رأي كاتبيها، ولا تتحمل دار ناشري أية مسؤولية قانونية أو أدبية عن محتواها.

الإخراج الفني:سارة عبدالله السندان
تصميم الغلاف: حياة الياقوت

إهداء

إلى كل نفس معذبة في صمت ، وإلى كل جرح نازف في هدوء بلا ضوضاء ، إلى تلك الأرواح التي في حناياها الوحشة واليأس ، وفي طريق حياتها الأشواك والعثرات والشمس التي تشرق على الجميع، تأبى أن تتسلل بأشعتها إلى كهف حياتها فيزداد عفونة وسوادا، ومن منجم تلك الأشجان صنع بعضها لنا الفرح وحلى به حياتنا ، والطريق إلى الجلجة طويل وجلجة تلك الأنفس وجدتها في أرحام أمهاتها قبل أن تفتح أعينها على الدنيا !إلى أولئك المعذبين أهدي هذه القصص تحية خالصة من صديق مخلص.

إبراهيم مشارة

الفهـــــرس

١-إهـــــــــــــداء	(٢)
٢-تـــــــــــــوطئة	(٤)
٣-العربي ولد صـــــالحة	(٦)
٤-حنيـــــــــــــن	(١٦)
٥-عفريت الإنـــــــــس	(٢٣)
٦-وافد من أقصى الأرض	(٢٩)
٧-لهيـــــــب في بو نصر	(٣٦)
٨-الســـــــاحة الحمراء	(٤٢)
٩-يـــــــا قمر يا عالي	(٤٩)
١٠-على بـــــــاب الله	(٥٤)
١١- طيور الشمـــال	(٨٥)
١٢- النـــــافذة الصغيرة	(٦٢)
١٣-سيرة ذاتية	(٦٦)

www.Nashiri.Net

توطئـــة

هذه صحائف كتبت ما أريد لها أن تكون قصصا فنيا كما عرفه أهل الفن و شب عليه قراءه ومتذوقوه والحق أن فيها شيئا من روحه ، فالسرد قار في ثنايا كل موضوع من مواضيع هذا الكتاب مصطنعا بعضا من الوصف متصاعدا باتجاه أزمة أو مفارقة ، و ليس هذا بالغريب عن أدبنا وتراثنا الفكري فبذور القصص الفني مبثوثة في ثناياه ، ولن تعدم الأمثلة على ذلك فالقصص الديني في القرآن الكريم ، وألف ليلة وليلة والمقامات والسيرة الهلالية وسيف بن ذي يزن وسيرة عنترة ، خير مثال على ذلك .ولكل قصة هدف ما تسعى إليه بل أنت واجد شيئا من هذا في الشعر في رائية عمرو بن أبي ربيعة وفي قصيدة الفرزدق في الذئب وفي غير هاتين القصيدتين ...

تراثنا الأدبي غني إذن بالسرد بل هو عنصر بارز من عناصره لولا أن القصص الفني بتقنياته المعروفة ثمرة من ثمرات الاحتكاك بالغرب والتأثر بالقصص الفني الغربي منذ أن أصدر محمد حسين هيكل روايته الشهيرة "زينب" عام ١٩١٢ ، ومنذ أن خاض في هذا الفن العجيب الساحر يحي حقي، محمود تيمور ويوسف إدريس وغيرهم .

وهذه شرائح من حياة عرفها الكاتب واختلط بها في سني عمره الأولى ، في بلدته التي مهرها الحب الخالص وأنزلها من الروح قرارها ومن العين سوادها ، و أتاح الله له أن يعيش فيها أسعد أيام طفولته ، على ما فيها من مر أحيانا ، وفي البلدة أزقة أشبه بالشرايين في الجسد ، تتقارب البيوت حتى لتعانق النوافذ إمعانا في التواصل والألفة بين الناس ، وهم يعيشون كأنهم أسرة واحدة يعرف الواحد منهم جميع أفراد الحي ذكرانا و إناثا وإذا صنع بيت طعاما شهيا أرسل منه إلى البيت الآخر ، وتأتي المواسم والأعياد وما يصاحبهما من عادات وتقاليد فتزيد البهجة في النفوس وتربط بين القلوب برباط المودة ، وقد جمع الكتاب بين أبناء الحي وادخر لهم بين حيطانه ذكريات سعيدة وهيأ لهم أن يحفظوا شيئا من القرآن وأن يعرفوا اللغة نطقا سليما وكتابة رزينة

كانت إذن حياة مطمئنة تسير كالنهر إذا استوى في سهل رقراقا بغير صخب أو ضوضاء ولو أن الحزازات والمناوشات كانت تظهر من حين لأخر إلا أن القلوب المستعدة للصفح والنفوس العامرة بالخير وعبق الاجتماع العامر بالأنس وبالمرح يذهب بتلك الخصومات أدراج الرياح ويذروها هشيما في قرارة النسيان .

وأما شخصيات هذا الكتاب فقد عرفها الكاتب واختلط بها وبعضها كان من أترابه ، شظف عيشها وقست عليها الحياة واصطلح عليها الفقر وفواجع القدر ، كانت

حزمة من الآلام تعيش بيننا دون أن تتأوه أو تشتكي وبعضها منح البلدة سرورا من منجم أتراحه وأفاء عليها البهجة والأنس ، ولم يكن الناس يملكون لهم نفعا، قاسموهم همومهم وجدانيا وربما قدموا إليهم بعض المعونة وأحسنوا إليهم ، غير أن الحياة طويلة وتصاريفها يشيب لها الولدان ، وكل واحد في كهف الحياة يتطلع إلى بصيص من النور مجاهدا تلك الصخرة الجبارة القابعة على مدخل الكهف !

في الحياة طيبة على ما فيها من قسوة وفي شريط الذكريات مساحات وضاءة على ما في ذلك الشريط من سواد ، وذلك ما تقوله هذه الصحائف .

و قد اختار الكاتب بعضا من الشخصيات أو قل هي التي فرضت نفسها عليه دون سواها وما أكثرها ولا يعرف هو لذلك سببا وإن كان تقديره المفارقة أو درجة الفاجعة أو غرابة الملمح، رسمها كما تمثلها في نفسه متحررا من ربقة الأصول الفنية جاعلا المشاركة الوجدانية القائمة على الإحساس بتعقيدات تلك الحياة ودراماتيكيتها من جهته همه الأول، وقد نشرها مفرقة في صحف ومجلات مكتوبة وعبر الأنترنت فالقصة الأولى نشرها في أخبار الأدب بالقاهرة وقد نالت الجائزة التقديرية للقصة القصيرة عن اتحاد أدباء العراق في٢٠٠٧ وبعضها الآخر نشره في "ديوان العرب" لصاحبه علي سالم و بعضها الآخر في صحيفة وطن "الصادرة بأمريكا ، أو مجلة الفوانيس المغربية الصادرة بهولندة ، ثم خطر له أن يجمعها في هذا الكتاب فهي أشبه بالأفلاذ التي لا بد أن يضمها جسد واحد و يرى القارئ بعد الفراغ من قراءة الكتاب وجه ذلك الجسد و يعرف ملمحه و يدرك تركيبه النفسي و يطلع على شيء من عاداته وتقاليده وطرائق معيشته. فإن وفق الكاتب إلى ذلك فهو سعيد حقا بعمله الذي أراد له أن يحيي به بلدته متمثلا بقول ابن الرومي:

و حبب أوطان الرجال إليهمو

مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو

عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وهي تحية إلى تلك الشخصيات التي عرفها واختلط بها وتحدث إليها واستمع إليها ، واحتفظ في ذاكرته بشيء من نوادرها وملحها ، وادخر لها شيئا من الحب الخالص والإحساس الصامت بآلام جراحها التي لم يهيأ لها الزمن أن تندمل ، وحسبه أنه خصها بهذا المؤلف وحسبها أنها تركت في نفسه أعمق الأثر .

برج بوعريريج رمضان ١٤٢٨

الموافق لشهر أكتوبر ٢٠٠٧

www.Nashiri.Net

العـــربي ولـد صالحـــــة (١)

العربي ولد صالحة هو راعي حينا السّويقة في زمورة بالأمس القريب، أما اليوم بعد أن أشرف على الستين فلا عمل له إلا التسكع في أزقة البلدة من بيته إلى باب السّور إلى أولاد صالح إلى جماعة السّويقة وإلى طريق جيشار (نسبة إلى مهندس فرنسي أشرف على إنجاز الطريق أيام الاستعمار الفرنسي).

تراه إذا ارتفع الضحى و في رائعة النهار و في الأصيل والغسق كعادته مقرفصا هنا أو جالسا على حجر هناك أو واقفا متأملا هنالك شارد الذهن كأنه صوفي بلغ به الوجد مبلغه، وقد لف جسمه المكتنز في برنوس الوبر البني الذي لم يعد كذلك لكثرة الأوساخ و الغبار العالق به، أما الوجه فممتلئ يكاد يكون دائريا على أبعاد متساوية من المركز ينم بحمرته عن صحة لم تستطع السيجارة ولا الزمن بتعاقب أيامه هدها، والغريب في الرجل أننا ما عهدناه إلا حليق الذقن وما رأيناه مرة أرسل لحيته كأنما كان و لازال يباهي بعافيته، ويتربع في قاعدة ذلك الوجه فم لم يبق فيه من أسنان الفك العلوي إلا الناجذان كأنهما شاهدا قبر مقلوب، و يبرز من ذلك الوجه أنف كأنه هرم اطمأن إلى ضخامته ومركزه المرموق من ذلك الوجه. وربما أمعن الرجل في تقدير أنفه فأبى في عز أن يعفره في التراب، فهو لا يسأل و لا يرجو معونة من أحد على الرغم من خصاصته و فقره المدقع فكم مرة ابتدرته بالقول:

- العربي خذ اشتر سجائر

فيرد على الفور:

لا لا عندي يعطيك الصحة

وكنت على يقين أنه لا يملك دينارا ولكنه كما ترى ما انتصبت أرنبة أنفه إلا لتذكرك أن الرجل صاحب كرامة لا يريد لها الخسف و رجولة يدل عليها الشارب الذي كان يقصه و ينضده،و أما العينان اللتان علتهما جبهة عريضة كثرت غضونها لكثرة ما مر عليها الزمن بعجلاته فصارت كأنها أخاديد عميقة، كنت أختلس إليهما النظر فنظراتهما فيهما انكسار و انكسارهما كان لغة تفصح

عن العجز أمام وطأة الظروف وقهر الحاجة ومرارة الوحدة، فكأن تلك النظرات كلما أحست أن شخصا ما يكاد يظفر بسرهما

---

(١)صدرت بأخبار الأدب القاهرة أبريل ٢٠٠٦،جائزة القصة اتحاد الكتاب العراقيين٢٠٠٧

www.Nashiri.Net

انكسرتا و تسللتا مع أديم الأرض، غير أن جاذبية الوجه تمثلت في سالفيه وقد وخطهما

الشيب منحدرين حتى العذارين تذكرك بسبعينات القرن الماضي، أما الرأس الذي يكاد يكون أصلع فقد غطاه بقبعة، شاشية قديمة مهترئة، وتحت البرنوس الوبري لف جسمه الطويل العريض في سروال و سترة بالية لم يفلح بعض الجيران في الحفاظ عليها نظيفة، و أخيرا دس قدميه في نعل مغبرة كسترته تصدق بها أحد الأخيار عليه.

كان العربي كما تقدم راعي البلدة في سبعينيات القرن الماضي إذ كان لكل بيت من بيوتها رأس أو أكثر من الغنم أو الماعز يستعين بها الناس على تدبير أمور معاشهم، كانوا يجمعون له القطيع في باب السور وهو بطحاء غير متسعة و لكنها تفي بالغرض و يخرج العربي من بيته يمشي الهوينى و قد وضع في جرابه كسرة خبز وقليلا من التين أو الزيتون أو الزيت وهو زاد يرسله كل يوم بيت من البيوت، وعلق بكتفه وعاء جلديا صغيرا للماء تدلى إلى خاصرته ووضع عصاه مستقيمة وراء عنقه ودلى عليها ذراعيه كأنه ملك خارج إلى رعيته من الماشية وربما تدلل قليلا فلو أضرب عن العمل لجاعت الماشية و بلغ صياحها عنان السماء، وإذ يجتمع القطيع يسوقه إلى المرعى و لا يعود إلا في آخر المساء و الشمس قد غابت و لم يكن يملك ساعة ولا هو يعرف قراءة أرقامها، فساعته الشمس و اليوم عنده يبدأ من طلوعها وينتهي بغروبها وربما منح بعض الماعز أو الغنم أو الجديان والحملان صداقته وعطفه وأظهر البغضاء للبعض الآخر وتعلل لذلك بكون هذه المعزاة مجنونة وتلك الشاة ثقيلة الحركة وذاك التيس شبق عنيد، وكم مرة عاد إلينا يحمل جديا ولد ليومه يضمه إلى صدره كأنه ولده وكم مرة عاد إلينا وهو يحمل معزاة مذبوحة نهرها وزجرها في المرعى فلما أبت الامتثال لأوامره ضربها بحجر فأصاب المقتل وعاجلها قبل أن تموت جيفة فذبحها وما ذكر اسم الله عليها ولا هو فكر فيه يوما، وعاد إلى أصحاب المعزاة بلحمها فتعول صاحبة الدار و تقيم مناحة و

ترثي الفقيدة العزيزة معددة خصالها وتذكر كيف خفت إلى المرعى على أربع نشيطة بعد أن در ضرعها حليبا فإذا هي تعود محمولة على عنق العربي ورقبتها تتقاطر منها الدماء ويغضب صاحب الدار، ويهيج لكن صاحبنا الراعي لا يقبل جدلا ولا يجيد اعتذارا كأنه حجر أصم و كأن فعله القضاء النافذ وكم كنا نصطف على تلة في "باب السّور" ننتظر عودة القطيع في المساء، كنا كمن ينتظر أوبة مسافر ذهب يسعى في سبيل رزقه، يتلهف كل واحد منا على لقاء جديه أو حمله أو معزته ولربما بلغ ببعضنا الشوق مبلغه فلقي جديه أو حمله محتضنا مقبلا، وربما بلغت القلوب الحناجر وظن بالأقدار الظنون و اطمأن بعضنا و انهار أحدنا لما وقعت الواقعة و لم يجد وديعته بين القطيع و ذرفت الدموع وقدم واجب العزاء لصاحب الوديعة الغائبة وحث على الصبر و السلوان، لقد اختطف الذئب وديعته في بطن الوادي كمن لها كمون الموت لابن آدم وغافل العربي فأخذها غنيمة ومتاعا، على أن العربي كان إذا علم بتربص هذا المجرم الخطير أشهر سلاحه وقذفه بحجر من منجنيقه و أبلى في ذلك بلاء يتسامع به أهل البلدة ويكبره رعيانها الآخرون فعصم بذلك قطيعه من مكر الذئاب و ما أكثره !

لم يتعلم العربي في كتاب شأن كل فرد من أفراد البلدة على اختلاف أعمالهم و لهذا فهو لا يعرف الباء من التاء و لا يحفظ حتى سورة الفاتحة و لا صلى في حياته ولا نذكره إلا بنسبته لأمه صالحة التي ماتت بعد أبيه منذ زمن طويل ربما أيام الثورة، ماتت وتركته أمانة في ذمة الفقر والعري والجهالة و الجوع هو وأخاه محمدا أو الحامدي كما كنا ندعوه في بيت قديم متهالك قدر لا تخلو زاوية فيه من نسيج العنكبوت ونشأ الأخوان على معونة الجيران وإحسانهم ولأنهما لم ينتسبا إلى كتاب وما عاشا في كنف والديهما ولا عرف دفء عائلة تولى الفقر والجهل رعايتهما فعطلا فيهما قوى العقل فنشآ بليدين خاملين،غير أن ناموس الطبيعة عمل عمله فنما الجسدان بقدرة قادر وهكذا استوى الحامدي رجلا ربعة محمر السحنة ممتلئ الجسم أفطس الأنف وقد انسدل شعره الأسود

www.Nashiri.Net

على كتفيه على صلع في وسط الرأس وكان من عادته أن يقرفص أمام بيت الجيران إذ كان لا يشارك أخاه الرعي و قد ظهر منه ما لا ينبغي أن يظهر من الرجل لرثاثة ثوبه ولم يكن يبالي بالقمل وهو يصول و يجول في رأسه وربما أمعن القمل في التعبير عن حريته فخرج إلى الجبهة و ربما وصل إلى الخدين الممتلئين وهو مغف أو يقظان كالنائم وإذا سألته رد بكلمة واحدة فقد كان مؤمنا بأن خير الكلام ما قل ودل.

و كنا و نحن صغارا نعابثه و نلح عليه ونكلفه من الأمر عنتا ونتماجن عليه وربما أمعن بعضنا في أذيته فجذبه من شعره أو عيره بعورته فيقوم متثاقلا وقد عقد يده مضمومة تعبيرا عن استعداده للكم دفاعا عن نفسه مكتفيا بالقول:

- اللّي ضحك مع والديه بكى !

فنجري هربا ثم نعود إليه ويقوم إلينا ثم يهجر المكان لائذا بالبيت المهجور. وذات يوم سمعنا من يقول أن الحامدي اختفى من غير سابق إنذار ترك البلدة إلى غير رجعة ولا أحد يعرف له طريقا أو مستقرا و لم يصادفه أحد في أية مدينة أو بلدة أخرى،و قد مر الآن على الحادثة أكثر من ثلاثين عاما و كنا إذا سألنا أخاه العربي اكتفى بالقول:

- محمد راح رفد روحه (أخذ بعضه ومشى) !

وهكذا خلا إلى الوحدة أو خلت هي به فنشأ كما كان أبو العلاء المعري يقول عن نفسه أنه إنسي الولادة وحشي الغريزة، استمر في بلادته و حفي بها وآنست هي إليه ومال إلى الصمت بعد أن هجر البيت أخوه ولأن الإنسان اجتماعي بطبعه كما يقولون اجتمع هو بالحيوان لا بالإنس و ربما كان لسان حاله يقول مع القائل :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عـوى

وصوت إنسان فكدت أطيـــــر

ولك أن تستبدل جملة " عوى الذئب" بجملة هدلت الحمامة أو ثغا الخروف أو مأمأ الجدي ليطابق لسان الحال واقع الأمر فقد ملأ البيت بالماعز والغنم والجديان والحملان وهي ليست له وربما ألح في طلب استضافتها عنده ليستأنس بها، ودجن

الحمام فتهافت على بيته مصبحا وممسيا وداجيا وتوطدت وشائج القرابة بينه وبين الحمام وعلمته الأيام والدربة طبائع هذا الطير فيزعم لك تفسير ما قال قمري لحمامة و ينظر إلى الحمام و هو طائر في الأجواء فيعرف القمري من الحمامة كما كان يقول، ومن غرائبه وما أكثرها أنه كان إذا حل العيدان و امتلأ مسجد (ابن الحسن) عن آخره بجموع المؤمنين هرعوا زرافات ووحدانا و في أيديهم مسابحهم ورائحة المسك تنبعث منهم وقد ارتدوا لباسهم الأبيض لباس التقوى و الإيمان (القندورة و البرنوس) وصوتهم الموحد يحمله مكبر الصوت في لحن عذب خاشع إلى كل أنحاء "السّويقة" سبحان الله والحمد لله و لا إله إلا الله الله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ترى العربي في صبيحة ذلك اليوم البهي قد أجاد حلق ذقنه وغير شاشيّته بأخرى نظيفة وارتدى لباسا نظيفا، السترة والسروال ينمان عن غسيل متقن تكفل به الجيران والحذاء أزيلت طبقة الغبار العالقة به ووقف مع المنتظرين فراغ المصلين من أداء صلاة العيد ليهنأ بالعيد جادا منتصب القامة، اليوم لا تعوزه اللباقة و البسمة البلهاء الحائرة لا تبرح ثغره كأنه يستقبل موكبا حاشدا رسميا ومن واجبه أداء الواجب والوفاء بضرورات العرف ومراسم الاجتماع فلا يلبث أن يصافح هذا ويغض بصره قليلا مع آخر اختلف معه منذ أيام حول معزاة جريحة أو نعجة ذبيحة ويقول في صوت خفيض كأنه الهمس لخصمه:

- عيدك مبروك

فيرد الغريم هاشا باشا

- غفر الله لنا ولكم !

كأنه يأبى أن يفسد على أهل البلدة احتفالهم بالعيد وابتهاجهم بمقدمه وإذا كان يعيش لوحده بلا زوجة أو ولد فهو يصر في هذا اليوم على أنه من أهل السويقة وكأن لسان حاله يقول مع القائل:

وما أنا إلا من غزيّة إن غوت

غويت و إن ترشد غزيّة أرشد

www.Nashiri.Net

وما غوت غزيّة اليوم ولكنها احتفلت بالعيد و أصر فتاها وراعيها على مقاسمتها الفرح بالعيد ولو أن الرجل كان كقلة ماء مهجورة مثلومة وفارغة اللهم إلا من الكمد و الوحشة و البلادة و لازال ذلك دأبه إلى اليوم كلما لاحت تباشير العيد !

و أما وحشية الغريزة فتجلت في عنفه إذا ثار و في قوة اللكمة إذا سددها إليك، وكان الجميع يهابونه إذا أمسك حجرا فكأنه الرصاص يصيب بالعطب، وقد اتخذ له من القماش وسيلة بدائية يرمي بها الحجر (المعقال كما كنا ندعوه) منجنيق من القماش يقذف بالنار لا بالحجر والقلب على من أصابه ! ثم خطر لأهل البلدة أن يزوجوه فالزوجة ستصلح من شأنه و تؤنس وحدته وتنظف بيته وتقوم على رعايته وربما رزق منها الولد فانقلب انسي الولادة انسي الغريزة ! واجتمع رجال البلدة وبتوا في أمر زواجه وتولت النساء الخطبة بعد أن دلتهم واحدة على مطلقة من بلاد القبائل وسعى الرجال خاطبين وفتح الله عليهم بالرضا والقبول من أهل العروس.

و أصبح بيت العربي خلية نحل، النساء ينظفن والرجال يصلحون ما تهدم من البيت و أضئ البيت بالكهرباء و اختفت المسرجة أو الشمعة وطليت جدران البيت وفرشت الفرش و أهدى إليه مذياع وبعض الأثاث العتيق استعدادا لقدوم العروس حتى إذا حل اليوم السعيد زغردت النسوة ورقص الرجال وذبحت الذبيحة ومدت موائد الكسكسى واللحم و العريس منذهل كأنه مخدر لا ينبس ببنت شفة و كأن الأمر لا يعنيه، وتولت الطبيعة العاملة في الجنسين التقريب بين الزوجين وما دار العام دورته إلا والعربي قد صار أبا لمولود ذكر يحمل اسمه، غير أن الغريزة الوحشية فيه لم يبدلها الزواج إنسية، فقد ظل على فظاظته وبلادته أيضا وداوم على الاستئناس بثغاء الخروف وهديل الحمامة ومأمأة الجدي، وضاقت به الزوجة وهربت إلى أهلها وأعادها أهل البلدة وهربت ثانية وثالثة و رابعة و أخيرا إلى غير رجعة مع ولدها !

و اشتد الخلاف بين العربي و أهل البلدة بعد أن كثرت ضحاياه من الماشية المجروحة والمذبوحة وصبر الناس عليه فلم يسمع نصحا ولم يقبل توسلا ثم يئسوا منه كما يئس الكفار من أصحاب القبور فأحالوه على المعاش بلا معاش رسمي !

ومنذ ذلك اليوم وقد مر على الحادثة عشرون عاما أو أكثر وهو يعيش في بطالة يذرع الأزقة جيئة وذهابا صامتا كدأبه يعيش على إحسان الجيران ولم يحدث أن خرج من البلدة يوما واحدا ولا هجع في غير بيته ولا زار طبيبا أو سمع به وقد توالت على زمورة خطوب أي خطوب !

ألمت بها الفتنة الصغرى في منتصف السبعينات وأحرق بعض شبابها دار البلدية وأ دخل الثائرون السجن، ثم جاءت التسعينات وداهمتها الفتنة الكبرى وسالت دماء كثيرة ،وتوالت على العالم محن يشيب لها الولدان و أهل البلدة لا يلتقون إلا للحديث عنها و الاختصام بشأنها كل ذلك والعربي غير معني بالأمر ، ولا فهم عن الناس ما يخوضون فيه من حديث وما يختصمون بشأنه كأنهم يتحدثون باللاتينية !

غير أنه إذا جن الليل من كل يوم و سكن الطير و استسلمت البلدة إلى سكون هادئ جميل تسلل إلى كل بيت صوت شجي حزين يستولي على الفضاء إنه صوت الناي أو القصبة التي طفق العربي يعزف عليها،ولأن بيته القديم يربض عاليا على تلة مقابلا البيوت الأخرى، كان الصوت يستولي على المكان و يتسلل إلى كل أذن وقلب فلا تلبث صاحبة البيت أن تقول:

- اسكتوا العربي يغشبط (أي يعزف)

كان الناي يئن بتأثير من نفس العربي المعذبة المستوحشة الحزينة فلا يلبث ذاك الصوت أن يعدي كل قلب بالبر حاء، نعم ها هو قد انقلب إنسانا وفنانا يعزف على الناي ويستأنس به بعد أن عهدناه في النهار فظا بليدا منذهلا كأنه علامة تعجب، وهاهو عزفه يدخل كل بيت منطلقا من نافذة بيته الصغيرة، شد ما كان يأخذ بشغاف القلب عزفه ! إنه لا يقول بالكلام ولا بالمكتوب الذي لا يعرفه شيئا عن معاناته ولكنه بالعزف يظهر المكنون ويجلي السر.

إنه يعزف للسماء حاديا بنجومها وقمرها،وللشجر الذي يتجاوب معه بحفيفه وفي الصميم إنه يعزف لأمه التي رقدت في قبرها تسف من ترابه ولأبيه الذي أعرق في البلى ولأخيه الذي ما عاد ولو بخفي حنين وللزوجة التي هربت بالولد غير محتملة إياه وللدنيا التي اتسعت للملايين وضاقت به وحده ويعزف وقد استسلم بعضنا إلى

www.Nashiri.Net

دعة الحب أو بهجة الأنس وهو بذلك ينطق معاناته التي كانت في النهار خرساء لا باللفظ السالك مجرى الطعام ولكن باللحن الشجي وكأنه يقول لأهل البلدة إني أحسن شيئا لا تحسنونه. ومازال العربي يتعاقب عليه الأحدثان بلوى خرساء في النهار وصوت شجي تنبجس معه الأحزان من قرارة النفس في جوف الليل وهو يشيع الدفء والرضا والدعابة بين شبان البلدة اليوم إذا ألحوا عليه واستلوا منه الكلمات إذ يبتدره متماجن خبيث بالقول:

- العربي هل لك في الزواج ؟

فيرد

- لا لا الزواج غالي
- فيقول آخر متغامزا: وما شأنك أنت وغلاء الزواج؟

نزوجك ونأتيك بامرأة تصلح من شأنك تغسل لك ثيابك وتطهو لك طعامك وتؤنس وحدتك ومازال في العمر بقية، كم عمرك ؟

فيرد متثاقلا

- لا أعرف، ثم يردف وقد صرف بصره ذا النظرة المنكسرة إلى الأفق البعيد وحدي أفضل
- فيقول المتماجن:
- نعيد إليك زوجك وبالمناسبة يعود إليك ابنك الذي صار الآن رجلا وسنجعلها حفلا بدلة جديدة لك والدشّ على حساب الصالح
- فيقاطعه العربي
- أحفيظ ! (معاذ الله)

فهو يكره الدشّ والاغتسال إلا فيما ندر وربما بالإلحاح فيقول الصالح

- إذا لم تقبل بفكرة الزواج لا سجائر لك عندي بعد اليوم فيذعن المسكين ويوافق على الزواج باللفظ فقط حتى يتخلص من الإلحاح ومن الحرمان من السجائر وما كانوا يحرمونه ولكنها الدعابة ودواعي التمثيلية.

هنا ينتصب أحدهم قائما ويقول:

- الفاتحة ويومئ إلى العربي برفع يديه لقراءة الفاتحة مع الجمع ثم يقول:

- هذه فاتحة العربي بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم .....آمين أما العربي فهو ساهم الفكر لا يقرأ حرفا لأنه لا يعرف كلمة من هذه السورة وقد رفع يديه كأنهما عش طائر فارغ.

- الدخلة الخميس القادم

ثم يأتي أحدهم بخاتم من قصدير صغير ويحشره في أصبع الرجل حشرا معلقا هذا خاتم الخطوبة احذر نزعه يا بطل أنت عريس مع إرجاء التنفيذ وينفجر الجميع ضاحكين والرجل يقلب نظراته المتوسلة بين أفراد الجمع ولا ينصرف إلا بعد لأي إلى بيته ذاك القديم الرابض على تلة مقابلا سائر البيوت الأخرى .

www.Nashiri.Net

حنيـن (١)

إذا مررت في دروب الحي حي السّويقة وانعطفت نحو تلة تقع عليها مقبرة الحي لفت نظرك قبر يقع على حافة الطريق – هو ليس كقبر حرب – فما أكثر القبور المتناثرة هنا وهناك غير أن خصيصتين جعلتاه متميزا عن سائر القبور أولاهما أن شجرة سرو صغيرة نبتت عند قدم صاحب القبر وهي تنمو مجتهدة لأن تكون كبيرة كأشجار المقبرة، وثانيهما لو مررت في الربيع لأدهشتك باقة من زهر النرجس نبتت عند رأسه تعطر الجو من حول القبر، أما شاهد القبر فكتبت عليه آية قرآنية " فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم"، وقد امحت بعض أحرف هذه الآية بفعل البلل والزمن وحتى أحجار القبر تكاد تندك فلا ترى القبر مستويا بل معوجا.

كان ذلك منذ أكثر من عشرين عاما حين رقد الميت في قبره وكان ذلك في شهر رمضان وقد تعدى الثمانين جاهد الزمن والمرض وعسر الحياة ببسالة وصبر حتى نال منه المرض والزمن وأسلمه إلى وحشة الأجداث تاركا زوجه العجوز مع فتى صغير هو حفيد أخ الراحل، وكان الأخ يعيش في باريس لوحده بلا زوجة وقد نيف على السبعين، أما ابنه الوحيد الذي هو أبي فكان يقيم في المدينة مع أمي وبقية إخوتي يشتغل مفتشا للغة العربية ويزورنا في زمّورة كل نهاية أسبوع يعود عمه الذي رحل وزوجه العجوز ويصلي الجمعة في مسجدها ويعود إلى البرج مساء.

تربى أبي في حضن العجوزين إذ لم يكن لهما أولاد فلما كبر أبي واستقل بحياته كنت أنا فتاه الأكبر فأخذني العجوزان وكان عمري ستة أشهر، بحثا لي عن مرضع وأحاطاني بالحدب والحب حتى اشتد عودي، كنت قرة عينيهما ، دفعا بي الوحشة والملل واستعانا بي على بعض الأعمال الصغيرة.

وأنا اليوم أنظر إلى مربيتي أمي مباركة في إشفاق وحب منقطع النظير وأتأمل كيف نال الهرم منها واحدودب منها الظهر وامتلأ وجهها الطيب غضونا وتجاعيد إذا مشت في أزقة الحي فبمشقة تخبط كأنها ناقة عشواء على الرغم من استعانتها بالعصا وتكاد تكون كفيفة لولا بقية من بصر ولو أنها تتعرف على الناس بمشقة من أصواتهم إلا أن السمع كالبصر أجهده الزمن ونالت منه الأيام فلا يكاد يعمل عمله .

وهي تعيش اليوم في بيت كبير لوحدها كأنه ثكنة مستطيل امتلأ غرفا إذا دخلته أدركت للتو أن هذا البيت شهد في الماضي عزا وحركة وخيرا كثيرا فالإسطبل شاهد على أنه كان عامرا بالشاء والماعز والبقر والفناء الواسع المفتوح على الهواء تتخلله شجرة الليمون والمشمش والعناب وبعض النباتات

---

(١) صدرت بديوان العرب آذار ٢٠٠٧

كالنعناع والحبق يوحي إليك ذلك أن صاحبته لا تحب العيش إلا في رحاب الطبيعة وفي البيت حجرة كبيرة ولو أن الزمن نال منها إذ يكاد يتهدم سقفها العربي وتنهار أسوارها المطلية بالجبس والطين، كانت تلك الحجرة يضرب فيها المنسج وتحيك صاحبة البيت الأغطية وما تحتاجه من شؤون البيت ولما كنت قارئا للشعر أستحضر للتو قول السياب وأنا أطوف في أرجاء ذلك البيت كلما زرته :

مطفــأة هي النوافذ الكثــار
وباب جدي موصد وبيتــه انتظـار
وأطرق الباب فمن يجــيب يفتـح
تجيبني الطفولة، الشباب منذ صــار
تجيبني الجرار جف ماؤها فليس تنضح
بويب غـبر أنها تـذرذر الغبــار

على أن أمي مباركة بالرغم من أميتها تدرك قيمة الأشياء تحدثك وهي تطوف بك في أرجاء البيت يوم كانت تقدر على ذلك فتقول لك هذه الكأس ذات اللون الأخضر اشترتها "لالاّ الصغيرة" عام الجوع وهذا المنبه الذي صار عاطلا اشتراه شيخي عام الاستقلال، وهذا الصحن أحضره من الشام يوم كان جنديا في الجيش الفرنسي أيام الحرب وهكذا مع كل شيء من أشياء البيت حتى لتخال نفسك في متحف.

وأهل الحي يكبرونها اليوم ويضمرون لها الوداد ويعطفون عليها مرسلين إليها كل يوم من يقوم على خدمتها- بعد أن ذهبت إلى العمل والعيش في المدينة وقد أبت أن تلحق بي- يطبخون لها الطعام ويصلحون لها فراشها وينظفون لها البيت ويرسلون لها في الليل فتاة تؤنسها وتبيت معها، وهي في النهار تقضي جزءا منه تطوف على بيوت الحي تتحدث إلى هذه أو تسمع من تلك هربا من الوحشة وثقل الصمت وبلادة الجدران.

وما أشق الوحدة عليها حين تتلفت ذات اليمين وذات الشمال فلا ترى نفسها إلا وحيدة كطائر هرم يتيه في فيافي، وربما زاد في وحشة القلب رؤية غيرها من العجائز وقد تحلق بهن الأبناء والأحفاد وأزواج الأبناء يقومون على خدمتهن أو يأتمرون بأمرهن، أما هي فالزمن يمر عليها برتابة وعقارب الساعة شفرات تقطع من القلب نياطه والشمس تسير برتابة كأن على كاهلها جبل الأولمب والأرض تدور متثاقلة كأنها حمار السقي، ولكن الزمن يفعل فعله يزيد في إعطاب الخلايا وفي إتلاف المخ وفي نهب ما تبقى من الصحة والبصر والسمع ولولا مواظبتها على تناول دواء الضغط لهلكت من ارتفاعه .

عاشت مع زوجها بابا الطاهر في ذلك البيت عشرات السنين ولم تشأ قدرة الله أن تنعم عليهما بالذرية وكانت تقول لمن تشكو عقما أو تسألها عن قصتها :

www.Nashiri.Net

- كل شيء بإرادة الله ، يهب لمن يشاء الذرية ويحرم من يشاء لا دخل لنا في علم وإرادة ربنا .
على أن أمي كانت إذا رأت عقوقا من البنين إزاء آبائهم صاحت:
- الحمد لله لم أخرجهم من هنا وتضع يدها على بطنها، أما بابا الطاهر فخصاصة العيش وشظفه أيام الاحتلال دفعته إلى الانتساب إلى الجندية فانخرط في الجيش الفرنسي ورابض في البحر الأبيض وتونس والمغرب ثم الشام والتحق أخوه الوحيد "محمد" جدي بمصانع السيارات في فرنسا، غير أن تدهور صحة بابا الطاهر بفعل البلل والتدخين والمبيت في العراء ألزمت الجيش تسريحه بعد أن انتهى مصدورا وعاد إلى البلدة – يرضى من الغنيمة بالإياب – وبمعاش ضئيل يدفعه الجيش كل ثلاثي لا يسد رمقا ولا يقي من مسغبة،فعمل في حقله على الرغم من مرضه يزرع الغلات ليقيم أود زوجه وأود أبي الذي رباه صغيرا بعد أن طلق أبوه أمه وعاش لوحده في باريس ثم أودي فيما بعد.
وكان يبيع القليل من تلك الغلات استجلابا لنقود يستعين بها على متطلبات الأيام – وما أكثرها ! – وظل ذلك دأبه أربعين عاما يتقي شبح الفقر بالعمل بتفان في الحقل وبحسن تدبير زوجه فيما يتعلق بمعاشه.
على أن أمي مباركة كانت إذا اشتدت الضائقة بأهل البيت ألحت على بابا الطاهر بأن يطالب بحقه في معاش خاص بمن شاركوا في حرب التحرير، وما أكثر المستفيدين منه!يكفي أن يذهب الواحد إلى دار البلدية مصطحبا شاهدين يشهدان على مشاركته في تلك الحرب فيصبح من قدماء الثوار ويستفيد من تلك المنحة.
عمل بابا الطاهر لصالح الثوار ،كان يجمع الاشتراكات وهي مبالغ مالية تجمع لدعم الثورة فلما انتهى أمره إلى السلطات الفرنسية ألقت القبض عليه وأودعته سجن "الكوليج" مع صديقه محمد بن رمضان وجاء عمي عبد الله وكان رئيسا للبلدية ظاهرا ومتعاونا مع الثورة باطنا يسألها عن الاشتراكات لينقلها إلى مكان آمن ويكفكف دموع أمي مباركة التي صارت وحيدة مطمئنا إياها:
- أنا على قيد الحياة وأنت تبكين؟ سيفرجون عن الطاهر قريبا لن يجدوا دليلا يورطه
وقضى عمي عبد الله في حادثة غريبة كان يلعب الدّومينو في أحد المقاهي وإذ خرج تربص به أحدهم - من الذين أرادوا أن يأتوا فعلا يبرهن على ثوريتهم - فأرداه قتيلا وهرب إلى الجبل ملتحقا بالثوار!
وتمنع بابا الطاهر على أمي مباركة رفض أن يذهب يسأل عن المنحة مكتفيا بالقول في حرقة وهو يعلم حقيقة الكثيرين من الثوار الجدد:
- أجري أجده عند الله.

وكان أبي "اعمر" قرة عينيهما أحباه وحدبا عليه ودفعاه إلى الكتاب فحفظ القرآن ثم أسلماه إلى فقيه درسه علوم اللغة والدين وأخلص هو في طلب العلم ووفرا له نقودا يشتري بها أمهات الكتب في النحو والفقه والتفسير وطالعها بنهم حتى صار حجة البلدة في الفقه واللغة ثم زوجاه وغادر البلدة مع زوجه معلما في مناطق نائية.

وقد رزق الله أهل ذلك البيت بفعل تفاني صاحبه في عمله ومساعدة أخيه المغترب في فرنسا من حين لآخر فاشترى أنعاما درت لبنا ولحما وأكرم أهل الحي وفتح بيته لمساعدة ذوي الحاجات وإطعام الغرثان وتربى في ذلك البيت يتيمان فتى وفتاة وهما أخوان غير شقيقين لأمي مباركة، فأما الفتاة فتزوجت وأما الفتى فكان مبتور القدم اليسرى، أصيب بورم وكاد هذا الداء أن يفتك بحياته فلم يكن من سبيل لإنقاذ حياته إلا بتر ساقه، على أن الطبيعة التي حرمته من رجله عوضته عن ذلك وسامة في الملمح مع سمرة محببة وعينان كأنهما أفق مغري يستثير الرائي ويأسره، وكان موهوبا يعزف على القيثارة ويطالع الروايات البوليسية ويصنع بمهارة تحف النساء ويحي حفلات الزفاف في الصيف ثم زوجاه هو كذلك واستقل بحياته.

واشتهر أمر البيت كما ذاع صيت كرم أهله فقد كان يؤمه كل ذي حاجة ومسغبة والبهاليل و"دعدونة" واحدة من زوار البيت وكانت فقيرة ترتدي الخرق البالية وفي قدمها خلخال يوحي بأن صاحبته عزيزة قوم ذلت، كانت تعيش لوحدها بهامس من الجنون والخرف مع الاحتفاظ بشيء من روح الاجتماع وكانت تزورنا باستمرار وما إن تراني حتى تصبح علي :

- صباح الخير بيبيش (القط الصغير) .

فيذهب عني الخوف إذ تعابثني وتضاحكني ثم تخوض مع أمي في أحاديث على الرغم من بلهها وكانت أمي تطعمها وتكرمها وتحادثها على قدر ما تبقى منها من عقل وقد قضت دعدونة في بيتها محترقة.

وكان من رواد البيت "عيّـّاشة" عجوز أخرى بيننا وبينها أواصر القربى حكت لي أمي أنها مرضت على النفاس فجنت وهامت على وجهها في الجبال والكهوف تأتي إلى البلدة من حين لآخر فيطعمها بعض الناس وربما باتت في الجامع أو في الزقاق وتزورنا أحيانا وتبيت في بيتنا، وقضت عيّاشة في فصل الشتاء خرجت إلى الجبل كدأبها فداهمتها عاصفة ثلجية حالت بينها وبين العودة فماتت هناك وأخذت منها الذئاب بنصيب .

أحبتني أمي مباركة كما أحبت أبي قبلي حبا لا نظير له إذ لا أنام إلا بجنبها وتميزت في تربيتها لي بالشدة حينا وباللين حينا آخر ولكنها لم تكن تحرمني من شيء بل وتعطيني نصيبها من اللحم وكنت شقيا شأني شأن صبيان البلدة فيحدث أن أتمرد عن الذهاب إلى العين العمومية لجلب الماء أو إلى الذهاب إلى الكتاب وكان لعب

www.Nashiri.Net

الكرة مع أترابي يستبد بي فأختلق الأكاذيب والحيل في سبيل ذلك ويكون جزائي الضرب الشديد من جهتها والبكاء الصاخب من جهتي ولكنها آخر الأمر ترأف بي إذ تعطني نقودا – لأشتريها سعوطا خفية – أو تقدم لي شيئا من الطعام الذي أشتهيه.
وربما امتدت قسوتها إلى بابا الطاهر أو صاحت في وجهه إذا خالفها رأيا أو احتج على ضربها لي فلا يجد من حيلة إلا الانسحاب والانطواء وربما البكاء المتشنج.
على أنها تميزت في علاقتها به بالمودة له والقيام على شؤونه وحسن رعايته ورعاية صحته وحسن اقتسام العمل حتى غدت مضرب المثل في الحي.
وقد كان بابا الطاهر مثلا حيا للشقاء يستبد به داء الصدر فيطرحه في الفراش أسابيع وربما شهورا وكان الشتاء هو وقت التباريح والأرزاء إذا قام من فراشه استعصى عليه التنفس فتسمع شهيقا شاقا وزفيرا أشق منه وسعالا متواصلا وتمخطا و عيناه تحملقان في سقف البيت ويرفع سبابته متشهدا ولا ينفع الدواء في تخفيف النوبة وكان هذا المشهد يتكرر مرات في اليوم إذ كان يحرص على الوضوء وأداء الصلاة على الرغم من اشتداد المرض عليه و تشتد عليه النوبة فنقول قد دنت القاضية وأهرب أنا إلى فناء البيت مرعوبا مرتجفا وأبتهل إلى الله أن يشفيه داعيا ملحاحا فما كنت أصبر على رؤيته في تلك الحال .
أما إذا صار الجو دافئا واعتدل النهار وخف عليه الداء وآنس من نفسه القدرة على العمل في الحقل خف إلى حقله يزرع الغلات ويتعهدها بالسقي ليلا إذ كان لكل حقل حصة من ماء العين العمومية مقدرة ليلا بوقت معلوم و كم عاد إلينا وفي جبهته كدمة أو في رجله جرح من أثر السقوط .
و كم مرة يبيت في الحقل يحرص غلاته إذا سمع أن لصوص الحقول يدورون حول حقلنا و كانوا يسرقون الغلال ويبيعونها في سوق البلدة وفي ليلة هجم أحدهم على حقلنا حيث يقبع بابا الطاهر حارسا متخفيا و إذ خاف اللص أن يفتضح أمره قذفه بحجر فكسر ساعده و عاد إلينا ذراعه تتدلى و أعولت أمي وانتحبت عند قدميه وكذلك فعلت أنا وهدأ من روعنا ثم قال :
- معوش هو الفاعل تبينت ملامحه تحت ضوء المصباح .
فترد أمي متشنجة .
- يأتي اعمر من البرج غدا ثم يذهب مع أبناء عمومته إلى الدرك يشتكيه، لا نسكت على ذلك، طمع في شيخ سرق حقله ثم كسر ساعده حرام .
ثم تعول وتنتحب وتبكي نساء الجيران وقد جئن عائدات لما سمعن بالخبر.
وقد كان شديد التدين سحنته المحمرة وشنبه التركي وعمامته وقندورته البيضاء كلها تدل على وقاره ورزانته بالرغم من قصر قامته وكان يقوم على خدمة جامع بجوار بيتنا " أبي الأرقط" ويحتفظ بالمفتاح وكانت أمي تفتخر بذلك قائلة لمحدثها :

- أعطانا المفتاح سيدي علي بن الشيخ .
وفي ليلة الجمعة كان بيتنا يتحول إلى مزار تتهافت علينا النساء من كل جهة يسألننا المفتاح والرفقة ، يأتين وفي صحبتهن أبناؤهن للزيارة يشعلن الشموع ويحرقن البخور ويحشين خزينة الجامع بالنقود ويطفن حول مقام "سيدي بلقاسم" و"سيدي مخلوف" سائلات الله متوسلات بصاحبي الضريحين أن يرزق إحداهن ذرية أو يمن على أخرى شفاء أو بعودة الزوج من غربته لواحدة ولا تنسى الأخرى أن تعد صاحبي الضريحين بكساء أخضر إن حقق لها بغيتها !
وكان بابا الطاهر يرى ذلك ولا ينكره بل يراه من دلائل الإيمان ويهيأ الجامع ينظفه ويفرشه إذا جاء موعد زيارة رهط من الناس يأتون كل عام من أقاصي البلدة رجالا ونساء يجمعون مالا ويشترون عجلا، يلفون عنقه بقماش أخضر ويسوقونه إلى بلدتنا يذبحونه ويقيمون بمعية أهل الحي وليمة كبيرة وكان الجامع الذي يقوم بابا الطاهر على خدمته هو آخر محطة لهم في زيارتهم السنوية إلى البلدة، وأمي تؤمن بهم وتنتظر بلهفة موعد زيارتهم وترى فيهم الكرامة والولاية ولا تذكرهم إلا وأعقبت :
- مسلّمين وتضم يديها كأنهما مغلولتان !
على أن أحد شيوخ البلدة ممن عرف بصلابته واستماتته في الدفاع عن آرائه يتصدى لهم بمعية شباب قد أرسلوا لحاهم وارتدوا قمصانا بيضاء مانعين إياهم من دخول فناء الجامع فيقول كبيرهم الذي اشتهر بصلابته .
- لن تدخلوا الجامع وعودوا من حيث أتيتم ما تأتونه بدعة ما أنزل الله بها من سلطان وإذا قبلنا بدخولكم بنعالكم ودفكم ورقصكم إلى بيت الله شاركنا في آثامكم فيرد عليه آخر من أولئك الرهط وهو يتمايل تحت ضرب الدف وعزف الناي (القصبة) وفي عنقه منديل أخضر اللون .
- سنة آبائنا وآبائكم ونحن نداوم عليها كرامتنا لا غبار عليها، والصبح قد انبلج لكل ذي عين عمياء.
فيرد الشيخ وحناجر الشباب تصادق سلفا على ما يقول .
- أنتم فيكم مروق وبعضكم لا يصلي تطأون أرض الجامع بنعالكم، تحبون ازدراد الطعام وجمع المال والرقص والله ما دخلتم إلى الجامع أبدا.
- فيرد الآخر :
ببركة أسيادي لا فلاح لك دنيا وآخرة وقفنا لك في طريق عقبك لا زواج لهم ولا ذرية.

www.Nashiri.Net

ويفلح الشيخ منتشيا في صدهم بمعية أولئك الشباب، غير أن أولئك الرهط يقيمون جمعهم في بطحاء قرب الجامع ومعهم نساء الحي ورجاله وفتيانه، وكانت أمي تتمايل ذات اليمين وذات الشمال تحت ضرب الدف وترنم القوم ورقصهم!

وفي سنوات عمره الأخيرة استبد الحنين ببابا الطاهر إلى أخيه أنهكه الداء وقعد عن العمل وكان أخوه يماطل ويسوف وهو في غربته في باريس يكتب إليه الرسائل يستعطفه ويتوسل إليه أن يعود ليراه قبل أن يموت ويطلب مني أن أفعل فعله لعل توسلي وكلماتي أنفذ من كلماته ويظل يتقلب على فراش المرض بين مطرقة الداء وسندان الحنين متسليا بالقراءة في "كتابي الأذكار" أو "بدائع الزهور".

غير أن يوم العيد كان مبعث أحزاننا ومنبجس أشجاننا يتحامل على نفسه ويصر على أداء الصلاة في مسجد الحي وتعاونه أمي في حلق ذقنه وتنضيد شاربه وارتداء ثيابه البيضاء وأسنده في المشي مع بعض الأقارب في الذهاب إلى المسجد فإذا قضيت الصلاة وانتشر المصلون في البيوت يتبادلون التهاني انفجر باكيا متشنجا وهو يجلس على كرسي يتلقى من الجيران والأهل التهاني بالعيد، كان الشوق إلى أخيه يتعاظم في العيد فلا يملك إلا الدمع مدرارا ويشق على الأهل وهم يرونه كذلك.

فما كان أقسى العيد على قلوبنا ينكأ الجراح وتسري فيه الأحزان في النفوس سريان النار في الهشيم !

وقضى بابا الطاهر ذات فجر من رمضان دون أن يرى أخاه اشتد عليه الداء وشق عليه التنفس حتى صار شخيرا حملق في السقف واستقبلت به أمي في شجاعة وبكاء مكتوم قبلة الموت ودعت أحد الجيران، كان يسقيه الماء قدماه بردتا ويبستا والروح تغادر الجسد وربما تمنت لو عرجت على باريس لتعانق الأخ القالي – وهيهات لها اليوم أشغال – إنها كالشذا لا تطلب إلا الآفاق العالية رفرفت كحمامة بيضاء وطارت إلى حيث لا أوبة ، أما النظرات فقد جمدت شيعت الروح وعجزت عن اقتفاء أثرها.

أغمض العينين الجار وقال إنا لله وإنا إليه راجعون.

مات بابا الطاهر ودفن حيث قبره الذي حدثتك عنه أول الأمر عند رأسه يزهر النرجس في الربيع وعند قدميه شجرة السرو تنمو في ثقة مجتهدة يتفيأ الراقد في قبره ظلالها.

عـــــفـريت الإنـــــــس (١)

شهر ماي في البلدة من أمتع شهورها لا تخاف فيه من زمهرير الشتاء و لا تسأم فيه من قيظ الصيف، ترتفع الشمس بعد الشروق شاقة صفحة السماء كعادتها و لكن في هذا الشهر تفيض على البلدة من ضيائها و تغدق على انسها وحيوانها من دفئها، ولا تكلفهم من الأمر رهقا فيخف الفلاحون إلى حقولهم باكرا و يلحق بهم أولادهم بعد الانصراف من الكتاب و لا يعودون إلا والشمس قد أنهت مداومتها و على ظهورهم أو ظهور دوابهم محصول اليوم من الغلال و الأولاد تراهم فرحين بباقات الورد التي جمعوها من الحقول و يقبل الليل بارا عطوفا محتفظا بقسط من دفئ النهار ليوزعه بالقسطاس المستقيم على الأحياء حتى البكور لولا نسمة الفجر الباردة، وقد أشرق القمر بدرا فبدا كوجه آدمي تميز منه العينين و الأنف فاستأنست النجوم بصحبته واستطاب لها السّرى وقد أنار صفحة السماء الدامسة ومن حين لآخر تهب نسمة خفيفة يستجيب لها الشجر بحفيف أوراقه غير أن هبة النسيم تختلط برائحة النبات وروث البهائم ورائحة العلف فتستسيغها النفس و ينبسط لها القلب فيطمئن الواحد إلى عطاء الأرض وبركة الحياة ، في هذا الشهر تبدأ حركة الناس في الليل للسمر و تستمر حتى آخر الصيف و لا يعودون إلى بيوتهم إلا و الليل قد انتصف و لا تشذ أمي عن أسر الحي تصطحبني معها - و ما شب عمرو عن الطوق بعد – إلى زيارة بعض الأسر القريبة و أحيانا نزور بيت الحنفي الذي يستقر في حي يقع على أطراف البلدة وهذا البيت صاحبته امرأة عجوز تعيش مع بنتيها و كانتا في سن الزواج، يغشى الناس البيت من كل حدب و صوب فالعجوز يأتيها هاتف من الجن"جلجال" يخبرها بمصائر الناس و أرزاقهم و أقدارهم كما يعتقدون ولا مشغلة لهم إلا بهذه المسائل الثلاث، فلا حرج أن تكن أمي للعجوز المودة و أن تخصها بالتعظيم و لا تذكرها إلا وضمت يديها كأنهما مغلولتان معقبة " مسلمين مكتفين" و قد سهرنا الليلة في بيت الحنفي و سمعنا من جلجال ما يطمئن أمي إلى النجاح في مشواري الدراسي وعن عودة جدي الوشيكة من ديار الغربة بعد غياب متصل دام أكثر من عشرين سنة ، وقد قطع القمر نصف المشوار وانتصف الليل وهدأت البلدة إلا من نباح كلب أو نهيق حمار أو هبة قوية لوطواط يفرقع لها الهواء أو نقيق ضفدع و ظلال الأشياء قاتمة يخيل للمرء أنها تسير إلى جنبه ، حتى إذا سمعنا خرير الماء من بعيد اطمأن، الواحد منا إلى وصوله إلى "السّويقة" حينا، و أما الخرير فمنشؤه العين العمومية القابعة أسفل الطريق خمسة أعين تتدفق بالماء الغدق منذ عشرات السنين فتروي الناس و الحيوان و الأرض بلا من و إلى

(١) صدرت بديوان العرب أبريل ٢٠٠٧

www.Nashiri.Net

جوارها المسلخ وكان الماء ينساب في الليل إلى الحقول مارا بالمسلخ و إلى يمين الطريق وهدة اتخذها الناس مكانا لرمي فضلاتهم وما هم في غنى عنه، غير أن المرور بهذا المكان ليلا لا تحمد عواقبه تواترت
الروايات عن العفاريت والجن التي تمرح فيه وربما آذت المرء، فلا ملاذ له إلا بقراءة آية الكرسي والمعوذتين ليسلم المرء من أذاها ونكاد نشرف عليها والفرائص ترتعد و البدن يقشعر و الشفاه تتمتم بآي الذكر الحكيم وقد التصقت بأمي عسى أن يخف الذعر و آن له أن يخف و أمامنا يتقدمنا أحد كهول الحي تعود على السهر في المقاهي يلعب "الدّومينو" و لا يعود إلى بيته إلا إذا انفض المجلس و أغلق المقهى أبوابه غير أن خرخشة ثم قرقعة تصل إلى آذاننا من جهة الوهدة المستقبحة الرائحة جمدت الدم في العروق و جحظت القلوب و هي تدق بعنف حتى لتوشك أن تخرج من الصدور، وهاهو الشبح يبرز من المكان هيئته هيئة رجل كما يظهر تحت نور القمر سرعان ما تبيناه فيصيح به الكهل :
لعنة الله عليك كدت أبول في ثيابي ذعرا
فيرد عليه العفريت الآدمي:
لا جن ولا عفاريت إذا سمعتم قرقعة وضجيجا في أنصاف الليالي فأنا صاحبهما يحلو لي العمل في هذا الوقت و الناس نيام فأجد ضالتي و أنفذ إلى بغيتي ، وودعنا متمنيا لنا الخير حين نصبح وعاد هو إلى موقع عمله عودة الليث منيع غابه.
و أحمد قنيبري رجل غريب جمع بين الفرادة و الشذوذ تقدم به العمر حتى أوشكت خواتم الأربعين أن تسلمه إلى فواتح الخمسين فلم تغير منه الكهولة ولا رشد أو أناب.
أما الوجه فمحمر و لكنه على حمرته يبس و تصلب لكثرة ما تعاقب عليه الصقيع و الحرور إذا لمسته حسبته مطاط عجلة تستقر في أعلاه عينان مستديرتان ضيقتان وقد غطى بعض الجفن جزءا من العين اليسرى فغدا كقرصان من قراصنة البحر وكان يملك القدرة على تثبيت عينيه فيك وهو يحدثك فلا يريم نظره مختلقا الأكاذيب ناسجا الافتراءات عن رحلاته الوهمية وصراعه مع الجن و العفاريت ومن حين لآخر يترك لحيته تسترسل قليلا فتوحي إليك بلامبالاة صاحبها و ضيق وقته فلا هو يقص شاربه و لا هو ينسق لحيته، وكان مدمن سيجارة يحشوها أحيانا بالحشيش فلا غرو أن تصفر أسنانه حتى لتعافها و يزيد الحشيش من نشوته و آية ذلك أن يحرك ر أسه بل يرقص بدنه كله و هو يحدث، وقد سلم من عيوب الطول و القصر فكان وسطا بينهما، مازال يدخر بقية من حيوية الشباب وعنفوان القوة يمشي في خفة و حماسة وقد لف رأسه تارة بعمامة صفراء أو بيضاء أو اتخذ له قبعة أو كان حاسر الرأس حسب الظروف و المستجدات غير أنه في الشتاء كان لا يخلع الواقية من المطر سترة النايلون الصفراء التي تمنع عنه البلل إلى بدنه و تهبه الحرية فلا يحول

المطر أو الثلج بينه وبين ممارسة هواياته و أعماله و قد ربط سرواله البالي إلى ساقيه ولفه حولهما بخيط حتى لا يعيقه أو يثقل بالبلل مضاعفا الإعاقة و دس قدميه في نعل مطاطي لا يسلم أنفك من شم الروائح المستقبحة و أنت تجالسه عاش بيننا خفيف الظل حرا معفيا نفسه من كل تكليف و تحرر من قيود العرف و ضوابط الحياة الاجتماعية ينام حين يستيقظ الناس ويستيقظ حين ينام الناس و لا يجمعه بهم إلا زمن يسير حين يمارس عمله أو يقص على الناس قصصه الغريبة و افتراءاته المحببة إلى الأنفس، وكان وحيد أمه العجوز يعيشان في كوخ متهدم زينته العنكبوت ببديع اللوحات و اتخذت الحشرات من سقفه البالي ذي الأحطاب السوداء مرتعا لها، وتشابهت أرضية الكوخ مع أرض الزقاق حتى لا تدري أأنت في الداخل أم في الخارج، غير أن قنيبري أحب المرح و اختص بالفكاهة يوزعها بالمجان ولم يجد من منفذ ينفس به عن كربه إلا الغناء صنع آلة موسيقية إذ اصطنع ظهر سلحفاة و ركب فيه عمودا واتخذ خيوطا من النايلون فغدت أوتارا و كنا نسمي هذه الآلة الشبيهة بالعود القنيبري و قد لصقت باسمه وبها عرف ودعي بيننا.

عمل سقاء يملأ قرب الماء للبيوت و يحملها على ظهره لقاء أجر زهيد لا يدفع خصاصة و لا يقي من مسغبة، وأما جحشه فقد أعفاه من أوزار هذا العمل الشاق عطف عليه و نظر إليه نظرة حانية وجحشه طرفة فلا هو بالحمار البالغ الذي يلحف في طلب العلف و يتخابث في المسير و لا هو بالجحش الصغير الذي لا يقوى على حمله، كان جحشا فتيا شابا يوشك أن يودع المراهقة ويستقبل طلائع الرجولة فتسند إليه المهمات الجسام صنع له برذعة جميلة و اصطنعه لركوبه و الجحش يسرع في مشيه فخورا بمن على ظهره ومن حين لآخر يأخذ سيده إلى العين العمومية فيأخذ دشا بالماء و الصابون وربما مشط له شعره فأخرجه آية في النظافة و الجمال و الأناقة وقد فاته أن يختص نفسه بنصيب منها !

لا يخلو يوم من رؤية وجهه ومن سماع طرائفه ومجونه وقهقهاته و أغانيه ممزوجة بصفيره على الرغم من اختلاف مواعيد نومه و صحوه عن مواعيد أهل البلدة يضاحك هذا ويكذب على آخر و يماجن ذاك حتى إذا فرغ من ملء القرب ونام في كوخه و أقبل الليل خف إلى هواياته باحثا في القمامة يبحث عن كل شئ هذه مقلاة هرمة معوجة قذرة سيصلحها و ينظفها ويقلي فيها الفلفل أو ربما باعها وانتفع بثمنها، وهذا إطار حاك قديم سيصنع منه صندوقا يجمع فيه بعض أدواته وهذه شفرة صدئة سيصقلها و يتخذها آلة لفتح علب السردين، وتلك قطعة من المطاط سيفصلها على مقاس جحشه حتى لا تؤذيه البرذعة، لا يخاف جنا و لا يقوى عليه برد شتاء أو حر صيف، كان يسخر من خوف الناس من المرور بالمقابر ليلا وحكاية الأموات الذين تتمثل أرواحهم للأحياء في الزقاق المجاور للمقبرة أو سماع

www.Nashiri.Net

أنات بعضهم فكان يملك الجرأة على أن يدخل مقبرة ويبيت فيها حتى ليخاف منه الأموات ويلوذون بأكفانهم و أجداثهم !
أما موهبته فتجلت في دعابته ومرحه وقدرته على استنسال النادرة من أخرى واختلاق القصص ونسج الافتراءات يتوسط الجمع فيخلب ألباب الجميع شيبا وشبانا مثبتا فيهم نظراته الرزينة والرذاذ يتطاير من فمه و نفاضة السيجارة استطالت و أبت في اصرار أن تسقط على الأرض وقد أحرق عينيه دخانها فأوشك الجفنان أن ينطبقا عليهما يهدأ في موضع الهدوء ويقوم في موضع القيام وتنبسط أسارير الوجه حين يشاء و تنقبض حين يستدعي الموقف ذلك واليدان تشاركانه الحديث والجسم كله يتفاعل مع القصة و أي قصة؟ صراعه و حسن تخلصه من لصوص الطريق حين عودته من المروك (المغرب)، وعراكه مع عفريت أو افتتان الناس به في مدينة بعيدة ونجاحه في صفقة بيع سلعة فاسدة، حديث طويل وافتراء كبير على أنه الكذب الحلو المستساغ الذي يجمع الشمل ويطبع المجلس بطابع المرح و الدعابة.
ومن نوادره أنه إذا جاع و استعصى عليه الطعام أو اشتاق إلى الشواء ولم يكن معه دينار ربما اختطف دجاجة لقيها في زقاق وأولم مع ضيوفه في "غار الغولة" وكان كهفا منعزلا بمحاذاة أحد الحقول مرتعا للصوص الحقول يلتقون فيه يأكلون ويشربون و يقيلون ويلعبون الورق مقامرين ويخططون لسرقة الغلال من الحقول يأخذون كفايتهم منها ويبيعون ما زاد عن حاجتهم في سوق البلدة و أما أصحاب الحقول إذا سرق أحدهم تفقد المسروق في السوق يأخذ هراوة ويصطحب أولاده حتى إذا رأى اللص البائع صاح حالفا بأغلظ الأيمان:
- بالحـــرام فلفلي وطماطمي
و يهرول إلى البائع السارق منهالا عليه بالهراوة ضربا و ربما تفطن السارق إلى مقدمه فيهرب ويقع هرج وضجيج وتطاير للغلال وصراخ وسباب.
وقد أحب قنيبري الخمر وكلف بها كما أحب الحشيش وادخره للشدائد و لأوقات المرح وروي مرة أنه حصل على زجاجة صغيرة من شراب فاخر كان يشرب منها من حين لآخر على طريقة رعاة البقر ولما سألته أمه عنها أخبرها أنها دواء يخفف من نوبة السعال ويشفي منها فلما انتابت الأم نوبة برد شربت منها فانتشت و أخبرت قرة عينها عن النشوة و البهجة التي أحست بها حين شربت من هذا الدواء..
احتفظ بروح الشباب و هواية المغامرة و كان يملك دراجة اصطنعها لتجواله خارج البلدة حين لا يقدر الجحش على مصاحبته و ربما سابق "كار بو كامل " حافلة عتيقة هرمة نصفها الأعلى مطلي بالأبيض و الآخر بالأخضر وركابها يتمخطون ويتقيؤون يكاد الناس يختنقون داخلها من رائحة المازوت هي أبطأ من فند وربما سبقها المرء وهو يمشي على رجليه و هي في سيرها كأنها شيخ مصدور يسعل و

يتمخط وكان يحلو لقنيبري مسابقتها بدراجته والوصول قبلها مزهوا بالانتصار عليها محدثا الناس بهذا النصر ناسجا كثيرا من الافتراءات !

أما إذا استعصى عليه النبيذ صنع خمرته الخاصة " الكازوزة" يخلطها بالكحول فحيثما قعد أو سار كانت رائحة الكحول تزكم الأنوف ولربما أراد أن ينسى كربه ويستعين بالكحول على الكآبة السوداء إذا رفرفت بأجنحتها فوقه، فقد اكتمل يتمه برحيل أمه، فلا زوجة يسكن إليها أو ولد تقر به عينه ولا سمعة يمشي بها بين الناس ولا دخل قار يخفف به من غلواء الزمن و تصاريف الأيام الكدح سقاء في النهار وسندباد مزابل في الليل و العمر يتقدم و الصحة على ثباتها يوشك الكحول أن يفعل بها الأفاعيل و الرجل يقاوم ذلك كله بالتمرد والإيغال في الحرية و القهقهة و السمر و في إشاعة الدفء بين الناس و هؤلاء ينصرفون إلى بيوتهم إلى أهليهم و أولادهم أما هو فيأوي إلى كوخ قديم تستقبله الوحشة وتؤنسه العناكب و الفئران حتى جحشه تخلى عنه وما تبقى له إلا القنيبري يعزف عليه ويدندن إذا آنس من نفسه القدرة على العزف و الغناء فتسمع "القرابة" و هي حيه في سكون الليل أنات نفس وحشرجات روح ما أتيح لهم في النهار أن يسمعوها .

وكان آخر عهدنا به منذ حوالي خمس و عشرين عاما لقيته وثلة من الأتراب متمددا في أحد الأزقة وقد أسند ظهره إلى الحائط و أمامه زجاجة كازوزة مخلوطة بالكحول و كانت الرائحة تزكم الأنوف، لقد ثقلت حركته وعيناه الضيقتان ذبلت نظراتهما وكنت تحس بشهقاته وزفراته وصدره يتسع ويضيق لقد شله الكحول وكلامه لا يكاد يبين و السكر قد تعتعه وكان لا يبالي بالمار ولو كان إمام الحي وشيخه الذي يهابه الجميع ويعظمونه ولو كان يعرف الشعر لصدع بقول أبي نواس:

ألا فاسقني خمرا و قل هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

ومن ذلك اليوم أو بعده بيسير اختفى أحمد ركب دراجته وذهب إلى غير رجعة لم يعد في البلدة المتسع لحريته وعربدته و كيف يبقى فيها وهو يرى أقرانه يكادون يصبحون أجدادا؟ قد سعوا في الحياة فظهر سعيهم في رعاية أسرهم و تدبير معاشها وما يستتبع ذلك من لذة وبهجة أما هو فجراحه العميقة التي تستر عليها بالقهقهة والعبث لا تندمل و رؤية أقرانه تنكؤها فالبعض يشفق عليه و القليل يسخر منه لا جرم أنه يرحل و في الأرض متسع ومنأى فالنظرات ستخف و الغمزات ستتلاشى ولو أن الجراح لن تندمل و لكن لا بأس أن تتكسر النصال على النصال في بلد لا يعرفه فيه أحد ذهب من دون أوبة و من دون توديع الأحباب و الأصحاب و المعجبين وغارت لحظات الأنس بعد أن تلاشى مسرحه ، وتكر الأيام والناس يكادون أن ينسوه ولا يذكرونه إلا لماما و شأن الزمن أنه يحتوي المرء بهمومه ومشاغله ومستجداته فيكاد ينسى من حوله حتى سمعنا من يخبرنا أن قطارا دهس

www.Nashiri.Net

أحمد قنيبري منذ سنوات قليلة بضواحي إحدى المدن و ولربما كان في غير وعيه وزاده التقدم في العمر و انحطاط الصحة وضعف أداء الحواس عجزا فلم ير القطار ولم يسمع صفيره فأكمل القطار بذلك صنيع الحياة التي دهسته صغيرا .

وافد من أقصى الأرض (١)

كلمة واحدة تفوه بها طفل فتى يصبح نؤوم الضحى لا يغشى الكتاب إلا و الشمس قد ارتفعت

و الصبية يوشكون أن ينصرفوا بعد أن يتحلقوا حول الشيخ يمليهم شيئا من القرآن يكتبونه على ألواحهم حتى يتموا حفظه فإن حفظوه محوا ألواحهم و أملى عليهم غيره وبعض الصبية نابه متقدم ، وبعضهم الآخر عاجز متأخر، وكان هذا الفتى من العجزة المتأخرين يكتب شيئا يسيرا من القرآن على لوحه فلا يحفظه حتى تمحي الكتابة وتزول فيعيد كتابته ويحذره الشيخ من مغبة الكسل و الإهمال ومن حضوره الكتاب متأخرا و ينال منه بالضرب على راحة القدمين (الفلقة) فما يرعوي و لا يجد غير أن كلمته هذا الصباح التي ألقاها في أذن أحد الصبية و أذاعها الآخر بينهم أحدثت هرجا في الكتاب و حديثا لا ينتهي تميزه بين الأصوات المرتفعة المصطخبة كموج البحر بعضها يقرأ من سورة فاطر و بعضها من سورة النبأ و بعضها الآخر يقرأ من سورة الشمس ومأمآت لجديان صغيرة تكابد في تهجئة الحروف .

- نعم رأيته و الباب مفتوح يقوم متثاقلا من سريره فصبحت عليه لكنه لم يرد و خفت فهرولت إلى الكتاب.

ويسأله أحدهم عن أوصافه فيصفه لهم في عجالة مهملا كثيرا من الدقائق التي ما أتيح له أن يستقصيها على حين غفلة من صاحبها و العيون تراقب الشيخ و عصاه الطويلة فإذا انتبه إليهم عادوا يجهرون بقراءة القرآن حتى إذا تحول عنهم بنظراته عادوا إلى قصتهم مشغوفين مفتونين بحديث هذا القادم الغريب ويكاد الصبر أن ينفذ والجميع يودون رؤيته لولا أن الشيخ نزل عن مصطبته ووقف منتصبا وقد أسكت الجميع بحركة من يديه ثم قال:

اسّرحوا (انصرفوا)

فخف الصبية إلى زاوية من زوايا الكتاب ألقوا فيها ألواحهم وهرولوا إلى زقاق بعينه يعرفونه حق المعرفة يقوم في طرفه بيت صغير بل غرفة واحدة وقد تناهى إلى مسامع أهل الحي أن قادما لا عهد لهم به من قبل سيتخذها بيتا له و أن قدومه وشيك وقد وصل ليلا فلم يره أحد وبات من أهل الحي و البلدة معا و جاءته حين أصبح كوكبة من الصبيان مشغوفة برؤيته حذرة منه في ذات الوقت حتى إذا وقفت ببابه صبحت عليه :

صباح الخير سيدي علي (وقد استقصوا عن اسمه من أهلهم قبل أن يصل الوافد إلى بيته الجديد)

---

(١)صدرت بديوان العرب حزيران ٢٠٠٧

www.Nashiri.Net

فيرد صوت مخنوق لا يكاد يصل الآذان مشفوعا بسعال يدل على أن صاحبه مصدور.
صباح الخير
ويدور في أرجاء الغرفة في ثقل وعسر باحثا عن دلو وقد ترك له ساكنو الغرفة قبله بعض الأواني حتى إذا وجده تناوله و أقبل نحو أحدنا قائلا:
- إملأ الدلو من العين العمومية و لك أجرك. وخف الفتى مع بعض الصبية فملأوا الدلو ووضعوه في زاوية من زوايا الغرفة حيث أمر فما كان في مقدوره أن يتناوله و أعطى الأجير أجرته.
كرم حاتمي يتيح لهذا الفتى وصحبه أن يشتروا علبة سعوط (شمّة) يحشون بعضا منها في أفواههم فتبرز للرائي كأنها ورم، أو يشربوا شراب الليمون المشعشع بالماء في مقهى الحداد، أو يشاهدوا حلقة جديدة من مسلسل "عنترة" أو "الأميرة الخضراء" في مقر الشبيبة و كان الحرمان يمنعهم أحيانا من مشاهدة بعض الحلقات و لا قبل لهم "بسي عبد المجيد" صاحب التلفزيون الذي كان يولد الكهرباء بمحرك خاص يشتغل بالمازوت ويشغل التلفزيون إذ لا كهرباء في البلدة، و مصباحه الذي يسلطه على وجه بعضهم في ظلام الحجرة الطويلة المستطيلة حيث قرفص الفتيان و تمدد الرجال على الأرض العارية يبصقون و يستهلكون سعوطا و يدخنون و يتابعون الحلقة جادين مهتمين لولا حركة صاحب التلفزيون التفتيشية وسط أكوام البشر وقوله في يقين:
أنت لم تدفع أخرج .
ويخرج الفتى كأنه خفاش في ظلام الحجرة حزينا أسفا إذا لم يدفع عنه أحد، أما اليوم فمعهم ما يكفي لقاء مشاهدة حلقة من المسلسل و يبدو أن الله ساق إليهم رزقا ما أتيح لهم من قبل فسيشربون دوما ليمونا مشعشعا بالماء وسيشترون سعوطا وسيشاهدون مسلسلات و أفلام كثيرة مادام القادم الغريب قد حل بينهم و أصبح من سكان حيهم، مد الله في عمره و أفاء عليهم من نقود جيبه .
"كايان" عاصمة مستعمرة غوايانا الفرنسية في أمريكا الجنوبية تحاذي البرازيل و تطل على المحيط، اتخذتها فرنسا منفى للثوار و المجرمين الخطرين وادخرت بعضا من شواطئها أمكنة استجمام للفرنسيين يأتون إليها للاصطياف و السياحة، وقد نفت السلطات الفرنسية " سيدي علي" إليها بعد أن أعياها أمره وقد غوى الرجل و أصر على غيه ووجد في فرنسا التي كان يعيش فيها شابا و كهلا مرتعا لانحرافه السكر و اللصوصية و العنف، ينتقل من مدينة إلى أخرى زارعا الرعب و يخرج من سجن ليدخل آخر ويهرب إلى مدن أروبا في يسر و ينتقل بينهما مرتكبا آثامه ثم يعود إلى فرنسا مهوى فؤاده ومتفتح شروره فاهتدت السلطات إلى آخر الدواء وآخر ه الكي فأبعدته إلى تلك الأرض النائية و لا بأس أن يرتكب شيئا من حماقاته هناك

غير أن المنفى و الزمن كفيلان أن يفتا الجوارح و العزيمة معا كما يفت موج البحر صخوره و يملأ ما ظل متماسكا منها ثقوبا و تجاويف و إلى ذلك آل أمر الرجل عاش هناك منفيا ومسجونا في أحايين أخرى تتعاقب عليه الأدواء بلية الزمن و عجلته التي تتقدم نحوه فتطويه حتى إذا قام طوته كرة أخرى و أوجاع المنفى و أشجانه أين " كايان" من باريس حين كان يخرج في الأماسي مهندما يغشى ملاهيها يعب من الخمر عبا ويغازل حسانها مشعرا إياهن بالأمان في ظل فتوته متنزها مع بعضهن في حدائق باريس وعلى ضفاف نهرها الخالد و الجيب مملوء حتى إذا أنفق آخر فرنك اتكل على فتوته و سلاحه و عصبته سطوا على محل أو قطعوا طريقا وسرعان ما تمتلئ الجيوب، أما في هذه الأرض النائية ولو أنه اتخذ أصحابا إلا أنهم صحبة اضطرار لا اختيار وكل غريب للغريب نسيب فشأنه شأن الشجرة التي يضخم جذعها وتمتد أفنانها عاليا لا تستمرأ تربة غير تربتها فإن أكرهت على تربة جديدة يبست و صارت أحطابا واتخذت منها الغربان أوكارا لها.

و في باريس كان في وسعه أن يلقى بعضا من أبناء البلدة فيتحدث إليهم بلغته الأم و يستقصي أحوال البلدة و أخبارها ، أما هنا فكأنه نقل إلى كوكب آخر المحيط أو بحر الظلمات أمامه و البطحاء الممتدة بلا نهاية وراءه إلا من أسلاك شائكة و أسوار سجون مشمخرة و أبراج مراقبة، وقد حمل نفسه على الصبر و الصبر حيلة من لا حيلة له، ووطنها على اليأس وفي اليأس راحة و استعان على ذلك بالخمر و السجائر و الأفيون و صحبة الغرباء، حتى تقدمت به السنون و انقلب شيخا نال منه الزمن و هدت الموبقات عافيته فانتهى مصدورا و أوشك أن يخرج من الدنيا أو تخرجه من إهابها فوقتئذ رأفت به السلطات الفرنسية و سمحت له بالعودة إلى بلده .

امتطى ظهر الباخرة " لا كي" فشقت به عباب المحيط حتى طرحته في "مرسيليا" و أركبته باخرة أخرى على ظهرها عابرة به البحر فلفظته في البلد، وحملته سيارة إلى البلدة حتى و صل إلينا و حل بيننا مقيما جديدا .

ما إن وصل الغريب إلى مسقط رأسه ومهد صباه حتى حلب في إناء القوم لف رأسه بعمامة بيضاء و ارتدى سروالا عربيا فضفاضا ودس قدميه الورمتين في بلغة و ستر جسده البالي بمعطف أزرق شاحب و اتخذ له عصا يستعين بها على مشقة المسير ، أما زي الشيوخ الرسمي (القندورة أو البرنوس الأبيض) فقد أعفى نفسه من ارتدائهما ثم أن البرنوس لا تحيكه إلا امرأة مفتونة بزوجها هدية له يوم كانت تقدر على غزل الصوف و ضرب المنسج وهو مجرد عود ملقى في العراء ، وهذا الزي يعني أن الشيوخ قد برئوا من ماضيهم بعد أن أدبهم الزمن أخذوا من الدنيا بنصيب و أخذت منهم قوتهم و عافيتهم حتى لتوشك أن تسلمهم إلى و حشة الأجداث و ظلامها الآبد، وفي الحي المقبرة تقع على تلة مرتفعة ظاهرة بارزة أجداثها وقد

www.Nashiri.Net

تناثرت على أديمها كتناثر حبات الرمل و لا يفصل بين الحياة و الموت إلا زقاق ضيق، والجامع قابع هو الآخر على تلة أخرى مقابل مقبرة الحي يدعو أهل الحي خاصة شيوخه خمس مرات في اليوم، و ما تبقى لهم إلا الطمع في غفران الله و الشفاه تتمتم تسبيحا بحمد الله آناء الليل و أطراف النهار و احتمال برودة الماء في الشتاء لأجل الوضوء و صلاة الفجر في الجامع و انتظار صلاة الظهر حتى إذا فرغوا منها انتظروا العصر و قد أوكلوا إلى أسماعهم الثقيلة ترصد الآذان ومن حين لآخر ينظرون في ساعاتهم الجيبية ثم القرفصة يحشون أنوفهم بالسعوط و يكثرون من العطس و الحمد و التشميت يتذاكرون حديثا أو يتحدثون عن معجزات الله في خلقه أو يقص عليهم واحد قصة موسى و فرعون أو قصة موسى مع الخضر أو قصة يوسف و امرأة العزيز و يقبل عليهم الليل مذكرا إياهم بظلام اللحود فيرتعدون فرقا من هذا الذئب الذي يتسلل في جنح الظلام خاطفا شيخا لا يقوى على الفرار منه حتى إذا أصبحت سمعت من يقول إنا لله و إنا إليه راجعون، عمي المدني انتابته كحة شديدة وعسر في التنفس مدده أهله و استقبلوا به قبلة الموت ثم حملق في السقف حتى إذا حشرجت وضاق بها الصدر أعين بمشقة على النطق بالشهادتين – رحمة الله عليه –كل من عليها فان.

أما سيدي علي فقد أعرض عن هذا كله لم تشغله قبور الأموات كثيرا و لا جامع الأحياء بتاتا أما قرفصة الشيوخ فقد نفر منها وهم قبلا نفروا منه، وقد كان بلا دين فأفرد إفراد البعير الأجرب لا يسأل عنه أحد و إذا ذكر في مجلس عطف آخر بقوله أعوذ بالله، لا يعوده و لا يسأل عن صحته إنس و لا جان، إلا صبيان الحي يملأون له دلاء الماء أو يشترون له بعض الطعام إن استحال عليه القيام و المسير فينفحهم ببعض النقود وكان لا يكثر من الكلام ويمانع في قبول إعانة من جار أو جارة إن ألحوا عليه في ذلك.

وقد أنهكه الربو و اصطلحت على بدنه الذاوي كأوراق الخريف العلل لا يمشي خطوتين إلا كل وشق عليه التنفس فتسمع شهيقه وزفيره المتقطعين وتراه حملق فوق ووضع يديه المعروقتين المرتجفتين على خاصرته التي أكلتها النحافة ثم تسمع جملته الخالدة التي يقولها بمشقة كذلك ألف مرة في اليوم.

أبابا أف، أبابا أف

وكان وجهه الرقيق وقد كثرت عليه الجراح بفعل موسى الحلاقة حيث لا يحسن حلق ذقنه لارتجاف يده – ينقبض و النوبة تشتد عليه في الطريق إذا اشتاق لرؤية سوق البلدة و ناسها و أحيانا حتى إن قام من سريره فتحسبه يحشرج و أن الموت وشيك القدوم وهو في ذلك كله لا يتوسل سماء و لا يستعطف وليا..

أما ما استقذره الناس و شجبه الكبير و الصغير على السواء فأكله الميتة، وكان يوصي صبيان الحي بجلبها إليه إن صادفوها، وكان الصغار يتشردون في شعاب

البلدة ويهيمون على وجوههم في بطاحها أو يلعبون الكرة حتى إذا غارت في شعب ذهب أحدهم ليبحث عنها، فصادف دجاجة ميتة أحضرها معه ملوحا بها والبشر على وجهه فيعلق بعضهم:

وجبة دسمة لسيدي علي وشراب الليمون والسعوط على حسابه !

كان بيته أو بالأحرى غرفته قذرة جدرانها مسودة رطبة موحشة كسراديب روحه أو هي أقطار نفسه تمثلت لعينيه الذاويتين، وقد احتل السرير الهرم الذي وهب له في جملة ما وهب نصف الغرفة عليه أغطية رثة قذرة وإلى جانبه طاولة صغيرة وضع عليها خنجره وأدوية ونقودا وعلبة سجائر غير مبسمة، وأنى لرجل مدمن أن يهجر التدخين وقد كان عزاؤه في وحدته؟ أما الخمر أو الحشيش فنجوم السماء أقرب إليه منهما وهو القعيد الكسيح ثم أن رجال البلدة وشيوخها حريصون على أداء الصلوات والقيام بالنوافل والكتاب مملوء عن آخره بفلذات أكبادهم يجهرون بقراءة القرآن، فمن أراد شيئا منهما سعى إليهما خارج البلدة ! فلا مناص له إلا بالصبر والرضا بالسجائر من حين لآخر.

أما فيما تبقى من أرض الغرفة الضيقة تناثرت بضعة أواني كساها الوسخ بلون أسود وبعض ثياب مكوم في زاوية أخرى لا تقدر على الاقتراب منها وموقد كان يطهو عليه طعامه، والأدهى أن الغرفة غرقت إلى السقف في رائحة منتنة مزيج من العفن ورائحة الغائط ورائحة الميتة، وكان صبيان الحي يكابدون الأمر ويصبرون على دخول الغرفة، وربما أمسك الواحد منهم النفس حتى إذا لم يصبر عليه خرج يطلب هواء نقيا وعاد إلى الغرفة ممسكا النفس كرة أخرى منتظرا أوامر جديدة أو أجرة حتى إذا خرج من دون أوبة تنفس الصعداء !

وكنت إذا مررت بغرفته ليلا وكان الجو دافئا والباب مفتوحا على الزقاق واختلست إليه النظر شق عليك أن تراه محملقا في سقف الغرفة متمددا على سريره منقبض الوجه والصدر يعلو ويهبط شهيق شاق وزفير أشق ثم سعال وتمخط والجملة الخالدة : أبابا أف

لا مرية في أنك أشفقت عليه ورثيت لحاله وما همك ماضيه إطلاقا وقد شقت عليك وحدته ونظراته المتأملة في جوانب نفسه متأملة جدران الغرفة المسودة إذا خفت عليه النوبة في صمت وثقل، على أنه دعا الموت مخلصا واستعجله والموت في شغل عنه وربما جاءه مهرولا مقبلا حتى إذا أطل عليه ماطله وسوفه أخذ منه الفائدة بعضا من رمق الحياة الذاوية والجهد المتبقي واستبقى عنده رأس المال الروح وأسلمه إلى الأفأفات ، حتى سمعنا من يقول:

سيدي علي يحتضر

www.Nashiri.Net

وحضره الموت هذه المرة يريد رأس المال جادا ولكنه آثر أن يبقى عنده قليلا ينظر إليه ولا يعمل عمله يعاين حالته ويسمع بأذنه أفأفاته والبعض يقول:
اقرؤوا عليه يس .
ويمانع البعض الآخر في ذلك متعللين بنجاسة الموضع، ثم أن القرآن لا يعمل عمله إلا في أذن واعية.
وحسم الموت الخلاف جثم بثقله السرمدي على صدر الرجل المهترئ المنخور وطفق يتم عمله وحضر بعض من أقارب المحتضر بعد أن أعرض عنهم وأعرضوا عنه وتوسلوا إليه أن يتلفظ بالشهادتين والرجل قبل الرحيل عن الدنيا وقد بلغت الحلقوم يقفز قفزة عملاقة متخطية الزمان والمكان وفي لمح البصر تراءت لخياله الشاحب المرتجف كسراب بعيد باريس مرسيليا كايان عواصم أروبا مرحها حسناواتها ساعات أنسها لذاتها الباخرة لاكي ، السقم فالهرم فالوحدة فاليقين.
تبا للزمن وما يفعله بابن آدم يضاحكه صبيا ويلاعبه شابا يافعا ويصادقه كهلا ثم يخدعه ويسخر منه شيخا كاشفا له عن أسنانه الصفراء قاذفا إياه بحقيقة أمر من الداهية:
قهرتك يا ابن آدم وضحكت عليك كما ضحكت على جدك أوديب.
هذا الذي تعرف العواصم الأروبية وطأته والسجون والملاهي سطوته يموت نكرة شريدا بين أهله وفي مسقط رأسه فلا تذرف عليه دموع إلا دعوات مكبوتة تود له الرحيل الروح تصعد إلى الملأ الأعلى والصدر يهمد بعد أن قام الموت عنه والجسم وقد نضح بالعرق البارد تنتابه يبوسة وبرودة والعينان ظلتا مفتوحتين جمدتا وهما تشيعان الروح وتتبعان طريقها العلوي والشفتان مزرقتان ثم تنهدات طويلة من بعض الحاضرين ساعة الرحيل :
الحمد لله زال البلاء في الدنيا عن صاحبه وعن أهل البلدة هكذا قال بعضهم .
ويوم تشييع الجنازة أبى شيخ الحي وإمام جامعه أن يصلي على الميت في إصرار وقد حضر الجنازة قليلون واستعجلوا أنفسهم وهم يسلمونه أمانة في ذمة الظلام السرمدي وهرعوا إلى البيت إلى تلك الغرفة وكان في جملة ما وجدوه جوازات سفر وأخرجوا أشياء الغرفة وأحرقوها وطهروها بالمطهرات وأعادوا طلاءها واستلمها ورثته من بعده .
لم تعرف البلدة من " سيدي علي" إلا ألمه وسعاله وتمخطه ثم جملته التي حفظها الكبير والصغير على السواء.
جاء من أقصى الأرض يجر نفسه قاصدا المقبرة لا الجامع بعد أن يستريح قليلا من وعثاء السفر وقد عبر المحيط والبحر بمشقة بالغة وأنى لشيخ مثله حي كأنه ميت أو ميت كأنه حي أن يقوى على ذلك ! وفي نفسه التي تحطبت أفنانها وتناثرت عليها أوكار البوم والغربان ورقة صغيرة ظلت محتفظة بخضرتها على مدى السنين لقد

أحب بلدته وأبى إلا أن يملأ رئتيه المهترئتين من هوائها ويرى رجالها وشيوخها أولئك الذين إذا مر بهم تراءى لهم شبح كلب أجرب ورآهم هو كومة لحم منكمشة مقرفصة لم تقم بأعمال بطولية في شبابها فتتنافر النظرتان يحتمل منهم الزراية والإعراض ويحتملون منه القذارة والمروق.
رحل منذ ثلاثين عاما وقبور كثيرة مازالت تقاوم الزمن عليها أسماء ساكنيها إلا قبره فعبثا تحاول أن تجده !

www.Nashiri.Net

لهيب في بونصر (١)

لا أستطيع أن أنسى منظر اللهب و الدخان ، النار تكاد ألسنتها تبلغ عنان السماء و الدخان يتسلل إلى حلقك مارا بخياشيمك فتكح عيناك تدمعان على الفور ، و الأصوات ترتفع مصطخبة كأنها زمزمة ثم تتبين بعضها بعد لأي : إلى الأمام يا رجال ، ولّى زمن الخضوع ،لا يفرض أحد علينا مرشحا ، يسقط التزوير و المزورون !

و تلتفت يمينا و شمالا فترى أمواجا بشرية في جيئة و ذهاب ، كرّ و فرّ ، بعضهم يحرق و بعضهم يتظاهر ، و آخرون جاءوا ليتفرجوا على الحدث ، أمّا نحن الصغار فأكبرنا الحدث و استمرأنا الفوضى يقول الواحد منا لصاحبه :

اهرب حتى لا يدهسوننا إن تدافعت الأمواج البشرية !

و قد دفعنا الفضول إلى متابعة هذا الحدث الجلل الذي لم يسبق للبلدة أن عرفته عن كثب ، استبدّ بنا منظر النار العاتية ، و دوي الانفجارات و تدافع الأمواج البشرية ، فذعرنا و شعرنا بلذة عجيبة في ذات الوقت ، فقد أخرج الحدث البلدة من رتابتها و هاهم الكبار أمام أعيننا يحرقون ، يتظاهرون ، يكرون ثم يفرون ، و قد كنا نخافهم إن مارسنا شيطنتنا في الأزقة ، و جاء دورنا لنتفرج !

و المدرسة قد أغلقت أبوابها و كذلك الكتاب و قد مل بعضنا من حفظ ما كتب على لوحه بصوت جهير أو من تلقي توجيهات الشيخ حول رسم الكلمات و قد جلس على مصطبته يملي على الصبيان المتحلقين حوله شيئا من القرآن

---

١) صدرت بشبكة القصة العربية٢٠٠٩

ليكتبوه على ألواحهم (ثابت، محذوف ، في صدره ، الباء تعيط (تنادي) على الواو .....إلخ

بونصر تلة مرتفعة أول ما يتراءى لك و أنت تدخل زمّورة ، ارتفع فيها بناء كأنه ثكنة اشمخرت أسواره ، توحي حجارته بقدم عهده اتخذه الفرنسيون أيام الاحتلال ومصلحة إدارية خاصة ، و ادخروا بعض زواياه لحبس الثوار أو المتعاونين معهم واستنطاقهم أو تعذيبهم فلما استقل البلد اصطنعه أولو الأمر دارا للبلدية ، غير أن البناء احتفظ بهيبته و ذكرياته الأليمة فتحت كل حجر من أحجاره قرت دمعة أو قطرة دم

ولا تحتضن الجدران غير الآهات و الحسرات و أنات الأنفس المعذبة،

وكم توترات الروايات بيننا عن أسرار المكان يرويها السلف للخلف فتصطك أسنان المرء و يحمد الله الواحد منا على نعمة الحرية !

و قد جاء موعد انتخاب رئيس البلدية الجديد، زكت قرى قليلة الرئيس السابق وزكت أغلب القرى مرشحا جديدا، شابا فتيا علقت عليه الآمال

وأغرتها كثرتها فجزمت أنه فائز لا محالة، و أعلنت بعد الانتخابات النتيجة، سقط المرشح الشاب و فاز القديم! ولم يرض الحاضرون عن هذه النتيجة رأوا فيها تلاعبا و استبدّ بهم الغضب فما شعروا إلا وأقدامهم تدخل بهم إلى الدار و أيديهم تتناول أشياءها محطمة إياها ، الكراسي ، آلات الرقن ، السجلات المدنية ، النوافذ و الأبواب و أحرقوا مستودع المازوت فانتشرت حرارة رهيبة ، و تطاولت ألسنة جبارة من نار و دوت صفائح الوقود الملتهبة تصم الآذان و ترعب القلوب ، و كنا نحن الصغار أسفل التلة نأخذ ما يلقيه الغاضبون من أقلام و سجلات إلى بيوتنا أما ما لم نقدر عليه فنعبث به قليلا ... ثم نرجئ أمر النظر فيه إلى حين !!

وقد حاول رجال البلدية منع المتظاهرين من التخريب فما قدروا،

وحاولوا الاتصال بأولي الأمر في المدينة فما أفلحوا ذلك أن الغاضبين قطعوا أسلاك الهاتف وخاف بعضهم على نفسه فلاذ ببيته ، أما الرئيس القديم الجديد فخرج متخفيا ، وأطلق الخفراء طلقات نارية في الهواء فما خاف الغاضبون و لا تراجعوا عن عملهم ، لقد تحولوا إلى قلب واحد يطفح غضبا ، ونفسا واحدة ثائرة و فما واحدا يندد ، و يدا واحدة تدمر و تحرق وانحنى أحدهم على صاحبه وهو يضع يده على جبهته:

قلبي حدثني أن مرشحنا سيسقط ، خصمه له رجال هناك و أشار إلى مقر القسمة !

فرد الآخر :

مرشحنا نعم الرئيس لولا التلاعب ابن البلدة المخلص، شاب يمتلئ حماسة للعمل .

فقاطعه الأول :

www.Nashiri.Net

لعن الله التزوير و المزورين !!

و اعتلى إمام الحي ربوة و كان شيخا فارع الطول ، مكتنز الجسم، توحي حمرة وجهه بالقوة و الصحة و في صوته بعض اختناق غير أن كلامه يأخذ بتلابيب السامع ، و يأسره و ألقى كلمة مدوية على الجمع المحتشد :

أيها الشعب ..... بارك الله ممشاك و كلل بالغار مسعاك ، لا هوادة بعد اليوم ، هم بالسلاح و نحن بالحجارة ..... و ألقى خطبة طويلة ندد فيها بما رآه الناس تلاعبا وبارك عمل المتظاهرين و دعاهم إلى الاستبسال و زادت تلك الكلمة من حماسة الغاضبين فعادوا إلى الدار يدمرون ما فاتهم تدميره أو يحرقون ما تخلف ، أوحى إليهم حماسهم أنهم أسود في يوم تحول فيه خصومهم إلى أرانب ، فامتدت أيديهم إلى مقر القسمة و كان بناء مجاورا لدار البلدية هو مقر جبهة التحرير ، و قد قيل للمرء أنك تشم عبق الثورة خارجا من ذلك المكان ، و يرتفع الآذان خمس مرات في اليوم داعيا إلى الله الواحد ، وحدة تصطلح على روح المرء وتقر في قرارة ضميره فيسلم أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ! ولكن لا بأس أن تمتد اليد إلى هذا البناء اليوم فتعبث بحرمته كما عبثت بحرمة جاره ، وأكمل المتظاهرون عملهم ثم انسحبوا بعد لأي إلى ديارهم وجوههم مسودة من أثر الدخان و أصواتهم مبحوحة من أثر الصياح ، و سواعدهم كليلة من أثر عمل ما أقدموا عليه قبل اليوم و تسلل مع كل واحد شعور بالخوف من عاقبة الأمر فتر الحماس و غلى مرجل الخوف ، لا شك أن الجرم خطير ، وأن الهرم تزعزع منه ، و سيجثم بثقله على روح كل واحد : حتى لينوء بذلك الثقل الزمان والمكان !

وأقبل المساء معلنا انتهاء عمل المتظاهرين و بداية عمل رجال الأمن والمخبرين، وفي الجو شحوب من الدخان و في الأنف بقايا من رائحة الحريق و في الأفق تبرعم الأسرار فتتعلق بها الأنفس ملقية ألف سؤال، ترى ماذا يحمل الغد ؟ وما العاقبة؟

و أقبل الغد وئيدا حذرا ، فخف الصبية إلى حيث ألقيت الكراسي و آلات الرقن يعبثون بها ، و يمثلون أدوارا كأنهم عمال البلدية و كتابها و جلس أحد المتعابثين على كرسي فخم دائر فأشار إليه أحدهم :

حضرته رئيس البلدية .

و خف إليه الصبية يسأله أحدهم سكنا و الآخر وظيفة و آخر مؤونة ، و هو يتغطرس ، و يتحجج و يتعلل و يقهقه الصبية على ذلك كثيرا !

نشط المخبرون و فرض حظر التجول ليلا ، و أحاط العسكر بالدار المحترقة ، وأقيمت الحواجز في الطرقات ، كان العسكر يدخلون إلى الديار سائلين باحثين عن المشتبه فيهم نهارا و ليلا بمعية المخبرين ، و قبضوا على كثير منهم ، و فر البعض

الآخر يبيت في الحقول المجاورة أو المغارات و لجأ البعض إلى قرى نائية أو مدنا أخرى غير أن الإلحاح و التنسيق أفضيا إلى القبض عليهم جميعا .

و كان بعض الموقوفين أبرياء ما تظاهروا ولا أحرقوا و عملت الوشايات و الأحقاد عملها فذهبوا ضحايا لها ! ومثل الإمام أمام المحقق فابتدره قائلا :

- حضرتك إمام تخليت عن مهمتك في إمامة الناس للصلاة و إقامة الجمعة و الصلاة بالناس في الأعياد و في إصلاح ذات البين، و تحولت إلى محرض على الفوضى والتخريب، بلغتني خطبتك بتمامها.

فرد الإمام برباطة جأش :

كيف يسقط مرشحنا و أغلب قرى البلدة معه و يفوز الرئيس السابق و ليس معه غير قرى قليلة ؟

تلك مشيئة الصندوق .

ولكنه صندوق مشبوه، و لن نرضى بذلك أبدا. كان الفتى أملنا لم تستفد قرانا شيئا في عهدة الرئيس القديم و استفادت قريته و حلفاؤها، مللنا من الوعود والمماطلات فما شعرنا إلا و حماسنا يدفعنا إلى التمرد و أيدينا تمتد عابثة بأشياء الدار !

فقاطعه المحقق :

حماس زعزع الهرم وأغضب صاحب الشنب المنضد، اعتديتم على جلال الانضباط و هيبة السكون و أهنتم حرمتهما سكون الأرض يظلله سكون السماء، مجانين أنتم ؟

و قال القضاء كلمته: سنة سجن مع الشغل و النفاذ في حق كل موقوف !

و كان العشرات قد اقتيدوا إلى السجن ،و قد ذرفت الدموع و شهقت الأنفس ، واستشاطت الأخرى غضبا حين اشتمت رائحة دسيسة و انتقام و سجناؤها أبرياء ، ولكن إذا عمت خفت ، فما من بيت إلا و له سجين و ولدت تلك الحادثة تضامنا لا نظير له بين أهالي البلدة .

و أما النساء فصرن يجتمعن كل ليلة في بيت يسرين عن أنفسهن و يتذاكرن أزواجهن أو أولادهن ، و ربما بكت إحداهن أو اغتمت أخرى غير أن رؤية الأخريات تسري عنهن جميعا، و كثيرا ما كانت الإشاعات تسري بينهن سريان النار في الهشيم عن احتمال تخفيف العقوبة و يفرحن قليلا ثم يظهر زيف ذلك ، و احتجن إلى الغناء الحزين فنظمت إحداهن زجلا تذكر فيه الحادثة و تسمي بعض الموقوفين بأسمائهم و تغنيه لهن على إيقاع ضرب البندير(الدف) ، و كان ذلك مجلبة للحزن و النشيج !

و أما المسجونون فما إن اطمأنوا إلى مكان إقامتهم الجديد حتى شعروا بثقل الزمن ورتابة الأيام ، و أحسوا بالحاجة إلى التسلية و إلى الفكاهة يزجون بهما

www.Nashiri.Net

الوقت الثقيل فادعى بعضهم أن مولود كان من المحرضين و المخربين و هو من الطلقاء ، وأحضره رجال الأمن ثم أدخل السجن مع المذنبين و كان الرجل يقترب من الثلاثين قصير القامة ، كست وجهه المحمر التجاعيد إذا نظرت إليه لفت نظرك أنفه القصير الغليظ الواسع المنخرين حتى لتقول أن هذا الأنف لا ينسجم مع تقاسيم الوجه و أذنان كبيرتان كأنهما عروة إبريق ، و كان يأتي من الأفعال و الأقوال ما يبعث على الضحك والاسترسال فيه حد القهقهة ، بسيط الأحلام ، بدائي الحاجات ، لا تتجاوز طموحاته حد بلدته ، و الدنيا بسيطة فلم يعقدها الناس ؟ و الحياة سلسة كأنها عين السويقة تجري مطمئنة في يسر فلم يجعلها الناس مصطخبة و من وراء ذلك الاصطخاب القلق والغضب و البغضاء ؟ كان فقيرا لا يفقه قراءة و لا كتابة ، يأوي إلى كوخ يضمه وعائلته بعد أن ينهي عمله في المرعى مصطحبا معه إلى بيته عنزاته و جديانه و في جرابه بعض الأعشاب هذه لمداواة الإسهال و هذه للقيء و تلك للمغص يلبي بها طلبات الجيران ، و قد كان راضيا بنصيبه من الحياة ، قانعا باليسير الذي يدفعه له الناس لقاء عمله ، يوزع النكتة و يختلق الافتراءات و لكن الافتراء البريء الذي لا يحمل أذية !

وقد أحبه الناس و ادخروه للحظات العصيبة يسرون به عن أنفسهم ، و ربما عبث به البعض الآخر و اتخذه هزأة دفعا للملل و مجلبة للأنس في مودة عجيبة !! وهاهو الرجل اليوم يجد نفسه بين جدران السجن ، مذنبا و قد حكم عليه بالسجن و لا مناص من الصبر و هو بين إخوانه الذين لعنهم و لعن ذلك اليوم المشؤوم الذي أحرقت فيه دار البلدية ....

و كان أهل البلدة يأتون مرة كل أسبوع يزورون المساجين يحملون سلال الخضر والفواكه ، و من لم يقدر على ذلك أعانوه ، و قد أهدى إلى مولود مرة ديك مشوي ، وكان من عادة المساجين أن يقتسموا الأطعمة أو يتبادلوها غير أن الرجل لما رأى الديك أخفاه و أقسم على أن يكون من نصيبه لوحده جزاء وفاقا لمكر أصحابه به ، و حاسبه بعضهم على ذلك فرد عليهم :

كتكوت صغير، كله عظام لا يشبع صبيا. وقهقه السجناء على ذلك طويلا ورويت النادرة في البلدة !

و مر العام و خرج المساجين إلى دنيا الله و كان عيدا في البلدة ، رآهم الناس أبطالا أبوا الضيم و تمردوا على الإكراه ، و دفعوا من أعمارهم عاما طعاما لجدران السجن ، وقد جلس كل واحد في بيته في إعزاز لا نظير له يتلقى التهاني و الهدايا و تلقى مولود التهاني كغيره و حمد له الناس السلامة و أثنوا على صبره و الكل يعلم أنه كان كالأطرش في الزفة !

و حكى السجناء لأبنائهم و ذويهم عن ليالي السجن و طرائفه و عاد كل واحد إلى شأنه القديم .

و قد استأنف الراعي عمله ، عاد إلى قطيعه راضيا من الغنيمة بالإياب و قد سر بعودته القطيع و آنس برفقته يرعاه سجين سابق تزلزل الهرم من فعلته !!

و تكر الأيام و الناس يكادون ينسون الحادثة فلا يذكرونها إلا لماما ، و قد مضى عليها أكثر من ثلاثين عاما ، لا تعجب إذا قلت لك أن رئيس البلدية اليوم هو ذلك الفتى، أما مولود بوعافية فقد واصل نشاطه بدأب و تقدم به العمر قليلا لكن صحته تدهورت واصطلحت على بدنه العلل ، أصيب بفتق فما انقطع عن عمله و لا عالج نفسه و أنّى لفقير مثله بتكاليف العلاج ؟ و الرجل لا يكاد يقيم أوده و أود زوجته و أولاده ، لقد أحب عمله و قطيعه و وجد في رحاب المراعي صفاء و فطرة و سكينة عزت على غيره في أزقة البلدة ، ملأ رأيته برائحة الشيح والخزامى فظلت تلك الرائحة تجذبه إلى فضاء الله الرحب حتى قضى ذات يوم بين قطيعه في المرعى ، أما أولاده فهم مضرب المثل أدبا و همة و سمعة طيبة بين الناس ، و قد تعلم بعضهم حتى نال درجات جامعية .

www.Nashiri.Net

الساحة الحمراء(١)

La langue française utilise neuf espèces de mots , cinq mots variables , quatre mots invariables……

كتب ذلك بخط واضح جميل على اللوح الأسود واستدار نحونا ساردا علينا الكلمات المعربة والمبنية في اللغة الفرنسية قبل أن يدونها وبعضنا كان يخوض في الحديث مع زملائه أو تائها سارحا خارج القسم وآخرون كانوا يمقتون هذه اللغة وأهلها و لا يعرفون منها كلمة ولا هم يحبون أن يعرفوها فقد وقع في روعهم أنها لغة المستعمر وأن أهلها لا خلاق لهم ثم هي لغة خليقة بمن يعيش عيشة هنية ويرتدي لباسا نظيفا أنيقا وأهل المدن هم أهل هذه اللغة ولذلك أعرضوا عنها وعن من يفهمها ويحبها وكان من هذا الفريق الكثير في القسم فلا يفوته أن يشوش إن كان يملك القدرة على ذلك أو يتيه في القسم أوينشغل بحل مسألة من مسائل الرياضة أو إعراب جملة على أن المدرس توقف فجأة عن إلقاء الدرس واستدار نحونا قائلا:

- يا بني داب (حمار) تعلموا الرياضيات والعلوم و ادرسوا اللغة الإنجليزية (لغة العلم) أمريكا غزت القمر بالعلم كفّوا عن حفظ دروس التاريخ والجغرافيا تسعة عشر من عشرين في التاريخ واحد في الرياضيات مهزلة أفهمتم يا بني داب ؟

وكان كلا مه هذا الذي انتهى إلى مسامع مدّرس التاريخ قد أغضبه ونال منه وحملها ضغينة له في قلبه على أنه لم يقل شيئا يلتقيان فتنكسر النظرات و يتنافر القلبان وينأى كل عن صاحبه!

وسيدي الطاهر كما كان يدعى في الحيّ هو مدرس اللغة الفرنسية رجل جاوز الأربعين بقليل طويل القامة مع نحافة ظاهرة و شعر أشقر و سحنة محمرة عيناه رماديتان كأنهما انتزعتا من سماء باريس أما الشارب فكان يقصه ويرعاه كلما حلق ذقنه . لا مرية أن ابتسامته كانت أجمل مافيه تلعب بقلب الصغير والكبير وتفعل فعلها فيه علىأن تلك الابتسامة تكشف عن أسنان صفراء فعل فيها التدخين فعله ومن عادته إذا مشى وضع يديه إلى ظهره المنحني قليلا ، كان اجتماعيا كثيرا مرحا ودودا يحب الحديث معه الكبار والصغار الرجال والنساء إذ يحدث أن يمر في زقاق من أزقة الحيّ فيبتدره طفل :

- صباح الخير سيدي الطاهر

فيرد مبتسما :

صباح الخير ألم تذهب إلى الكوليج (المدرسة) ؟

---

(١) صدرت بديوان العرب ٢٠٠٧

فيجيبه الطفل :

- عند العاشرة

فيلقي عليه موعظة صغيرة تناسب سنه :- إقرأ واجتهد لا أفضل من الدراسة هي المستقبل لا تخالط الكسالى و البلداء حتى لا تكون في المستقبل (لصّ حقول) أليس كذلك ؟

ويكمل مشواره حتى إذا لقي أحدهم عائدا إلى البيت وقد ملأ قربة الماء من العين العمومية ووضعها على ظهره يسير بها في مشقة وهو يسرع في مشيه فيبتدره:

- المختار كان الله في عونك دائما كما عهدتك قويا جلدا " هوست "

ويمد ذراعه و قد عقد يده مضمومة تعبيرا عن الجلد والقوة حين العمل .

وتخرج عجوز لما سمعت كلامه من بيتها :

- الطاهر صباح الخير جاءتني رسالة من فرنسا كالعادة من صندوق التقاعد (فرنكات الشيخ الله يرحمه) تعال اقرأها واكتب لهم ردا كنت في بالي هذا الصباح حتى ساقك الله إليّ !

فيهش الرجل لها و يبش و يشفع ذلك كله بابتسامته الحلوة التي تبدي أسنانه الصفراء.

- النّا خديجة هات الرسالة وأحضري ورقة .

ويجلس الرجل عند الباب وقد أحضرت له العجوز ما أراد وفنجان قهوة حتى إذا قرأ الرسالة أعد لها ردا وسلمها إليها وهو يسل يده سلا إن ألحت النّا خديجة على تقبيلها!

عاش سيدي الطاهر شطرا من شبابه في بلاد الروس دارسا في بعثة قيادة وإصلاح الطيران الحربي و تنقل خلالها في بعض دول أروبا فاكتسب معرفة بالغرب ثقافة وأخلاقا وتقاليد واستفاد من صداقات كثيرة وحين عودته إلى بلده أبى في إصرار أن ينسجم مع صرامة الكلية الحربية وانضباطها فهجرها مفضلا البقاء في بلدته بعد أن يئست تلك الكلية من استدعائه بالإلحاح أو إحضاره بالقوة و معاقبته فسرح بعد أن عز الإمساك بالشدة أو بالإحسان وما كان ينبغي لمثله أن يظل بلا عمل وهو أب لحزمة من الأولاد وأمه تعيش معه فلاذ بمتوسطة البلدة مدرسا للفرنسية وما كان أيسر التعليم في ذلك الوقت تذهب إلى المدير وتقدم أوراقا فإذا أنت في الغد تصبح مدرسا للفرنسية أو الإنجليزية و أنت حامل شهادة في الرياضيات أو مدرسا للتاريخ وأنت حامل شهادة في الكيمياء وما كان المدرس يصطدم بعقبات خاصة من يعلم اللغات والجميع من التلاميذ يكادون يزهدون فيها وأيسر السبل أن يكلف تلامذته حفظ تصريف الأفعال في جميع الأزمنة و يقضي المعلم العام ناعم البال مستريحه !

www.Nashiri.Net

أما سيدي الطاهر فقد أقبل بنية العمل وذلك بحسن تدريس و تعليم الفرنسية لأبناء البلدة لكنه وجد من التلاميذ التثاقل ومن البيئة اللامبالاة حد الإعراض فألقى الحبل على الغارب مكتفيا بالنزر اليسير اليسير !

تناثرت أوراق الخريف مصفرة ونحن في الدرس الأول وتساقط الثلج كأنه قطع من القطن محولا البلدة الجبلية إلى قرية من قرى جبال الألب ومازلنا في موضوعنا الأول وذاب الثلج وغردت الأطيار وأفاقت أرض زمورة من سباتها مكتسية حلة خضراء موشاة بالزهر وأزهر اللوز كذلك ونحن في سرد كلمات الفرنسية المعربة والمبنية ويكاد العام ينصرم والفلاحون يهرعون إلى حقولهم يحصدون القمح و الشعير و يهيئون البيادر ونحن في درسنا الأول وربما انتقلنا إلى تصريف فعل في جميع الأزمنة وعدنا إلى ذلك الدرس عودة المهاجر إلى وطنه !

وربما أقبل علينا الأستاذ صباحا فراودنا عن أنفسنا مغريا إيانا بلعب الكرة عوضا عن الدرس و كنا نستجيب له فرحا وشوقا:

- تلعبون مقابلة أم تدرسون ؟

فنجيب على الفور في صوت واحد :

- ماتش ماتش

فيرد مبتسما اخرجوا إلى الساحة و ينادي عمي أحمد حارس المتوسطة و القائم على شؤونها طالبا منه إحضار كرتين إحداهما للبنات والأخرى لنا ويوزعنا إلى فريقين و يلعب هو مع فريق ضد الآخر أما البنات فينتحين بعيدا يلعبن كرة اليد حتى تنتهي حصة الفرنسية و هي ساعتان !

والغريب أن ذلك يحدث على مرأى و مسمع من مدير المتوسطة دون أن يحرك ساكنا أو يسكن متحركا !

وربما طلب مني أن أذهب إلى البيت لأحضر له قدحا من اللبن أو الحليب الرائب وكسرة خبز أحملهما إليه فرحا بخدمته لأنه كلفني بالمهمة دون غيري ولم يكن ذلك لسبب إلا لكوني أسكن قريبا منه على أن هذا الدرس الذي يستمر عاما كانت تتخلله المواعظ والنكت والتشهير ببعضنا والحكايات عن بلاد الروس وكنا نعرف شيئا عنها من مدرسنا عن عادات أهلها والساحة الحمراء وشراب الروس للفودكا مغالبة لقسوة المناخ واستجلابا للنشوة و الدفء عرفنا ذلك كله منه وسط قهقهاتنا إن حكى لنا نكتة أو شهر بأحدنا لقلة نظافته أو إهماله هندامه وكان يتهرب من تصحيح أوراق الامتحانات متناسيا إياها في بيته مختلقا الأسباب مستغفلا إيانا بنكتة أو تغيير الموضوع حتي إذا أكثرنا عليه ذهبت إلى بيته بأمر منه وأحضرت له الأوراق جلس إلى المكتب وشرع يصححها وأي تصحيح ؟ ينادي على أحدنا فيقوم مغمغما : حاضر، ينظر المدرس فيه طويلا ثم يقول :

- قذارة قامة طويلة بلا فائدة حفاظ تاريخ و جغرافيا لماذا تضع قدميك في هذه النعل المطاطية المنتنة. فتؤذ يهما ؟ واحد (آن) صدقة و يرسم واحدا في طول الصفحة على الهامش و نقهقه على ذلك طويلا وكثيرا ما كان يدور بين الصفوف يعابث الفتيات أو يحكي معهن و بعضهن فاتنات جمعن بين سحر الخدود فتنة القدود وبروز النهود وتزيدهن البسمة في خفر جمالا وقد وضعت إحداهن في شعرها وردة أو ضحكت الأخرى ضحكة بدت مغرية وكان كل واحد منا مفتونا بواحدة ينظر إليها طويلا وربما لا يكلمها لأنها تزدريه أو يغني أحدهم في صوت كأنه الهمس وهو يضرب بأصابعه على الطاولة : سيري سيري يالرومية أنا نبغي العربية ولابد أن يحرص كل واحد على حفظ سره متقيا الوشاة من تلامذة القسم إذ ربما علم به أهل الفتاة فجاء إخوتها أشبعوه لكما وركلا وربما أرسل إليها برسالة أو وضعها لها في درج الطاولة مستهلا إياها بتلك العبارة التي حفظها العشاق وتداولوها في مراسلاتهم الغرامية (بسم الله مسبب الأسباب وخالق آدم وحواء من تراب وجاعل الرسالة رسولا بين الأحباب .... ثم يبوح لها بحبه و سهاده) .

و كان المدرس يدور بينهن وربما وضع يده على عنق إحداهن مثبتا فيها نظراته

-أدق لك المنافس! وتخجل الفتاة مبتسمة في خفر ويعود إلى خطبه هذه المرة

- اسمعوا الاشتراكية نبيلة تحرص على العدالة الاجتماعية الكل يعيش في كرامة الدولة هي المالك والناس أجراء لا طبقية لا ظلم الناس سواسية كأسنان المشط ابن الفقير يمكنه أن يدرس ويتخرج من موسكو أو باريس أو واشنطن طيارا أو طبيبا أو مهندسا كل ذلك على نفقة الدولة أليس هذا رائعا ؟ عيبها في بلاد الروس أنها تزدري الأديان وإذا فقد الانسان الإيمان فقد المعنى في هذه الحياة .

وكذلك درسنا الفرنسية عبثنا ما شاء الله أن نعبث ولعبنا الكرة ما شاء الله أن نلعب وكنا نحب سيدي الطاهر حبا منقطع النظير ونفتقده إن غاب عنا يوما

وقد لازمته تلك العادة منذ عاد من بلاد الروس أن يشرب أحيانا دون أن نلاحظ ذلك أو ربما حشا السيجارة بشيء بني فيهتز جسمه نشوة ويستمرأ الحديث والضحك وقد ألح عليه بعض كبار الحي أن يدرسهم الفرنسية دروسا خصوصية في بيته القديم المتهالك واستزدنا نحن من ذاك الدرس الأول فكان الكبار يأتون مساء بمعاطفهم وبرانسهم وأقلامهم وأوراقهم يدخنون و يستهلكون سعوطا ويبصقون خلسة وسرعان ما يتركون الدرس ليخوضوا في حديث عن أهل البلدة أو عن الروس وعاداتهم ويقهقهون طويلا ثم نأتي نحن بعدهم

نستكمل ما تركوه على أن حدثا جللا حدث ذات مساء كنا في حجرة الدرس التي تقع في الطابق الأول أرضيتها من الطين و القش والأحطاب السوداء المتآكلة ونادت الأم على المدرس فنزل إليها ملبيا فاغتنمنا الفرصة وقمنا نعبث يمسك هذا بخناق

www.Nashiri.Net

الآخر و يضرب ذلك زميلا له برجله فيرد عليه باللكم والسباب حتى كادت الأرض أن تقع من تحت أقدامنا المتصاكة وأحدثنا فيها ثغرة كبيرة فتناثر الغبار وأشرفنا على المدرس وأمه من عل وهما يتحدثان والغبار يذرذر عليهما وصعد إلينا هائجا مرغيا مزبدا لاعنا إيانا والدروس الخصوصية :

- بني داب اخرجوا في لعنة الله اللعنة على اليوم الذي رأيتكم فيه لم تدفعوا أجرة لقاء الدروس ثم زدتم فخرقتم السقف لا تروني وجوهكم !

و من ذلك اليوم توقف عن تقديم دروسه في البيت و بعدها بقليل ترك التدريس إلى غير رجعة !

ابتسمت له الدنيا قليلا بعد عبوس وأنشأ مخبزة وعرفت حاله يسرا بعد عسر على أنه في تلك الفترة عرف بصحبته لرهط يحيون الليالي ذاكرين مترنمين كل ليلة في بيت أحدهم ينشدون أشعار للعلاوية ويسمون اجتماعهم هذا جمعا حتى إذا حمى الوطيس وأحسوا أن أرواحهم لتوشك أن تحلق بهم في الآفاق فتضيق عنها أجسادهم وأن تلك الأجساد انتشت بذلك الإيقاع وتلك الغنة فيقوم كبيرهم يتمايل يمينا وشمالا ورأسه يهتز والقوم ينشدون بصوت واحد :

هيا يا طبيب الأرواح داوي لي قلبي وأجراحي

هـــيـا يا طبيب

ثم يقوم الجميع يهزون رؤوسهم والعرق يتصبب على وجوههم حتى إذا نال منهم العياء جلسوا رافعين سباباتهم مغمغمين : حي دايم واحد!

ويحضر المسفوف بالزبيب و الرائب أواللبن ثم الشاي والقهوة وقد استأنس سيدي الطاهر بأولئك الرهط يحضر كل ليلة بقشابيته البنية اللون المنسوجة من وبر البعير تقيه من البرد و تيسر له أن يلف سجائره التي ربما حشاها بشيء بني يزيده أنسا على أنس ونشوة على نشوة ومسرة على مسرة !

و ابتدأ الصلاة ثم دأب عليها غير أن الأفق اغبر والرياح عصفت والشمس اختفت من وراء حجاب زمجرت السماء مرعدة منذرة بالصواعق و كان كل واحد يلوذ بجذع أو يتعلق بفنن أو يختفي في داره منذرا نفسه و غيره بأوخم العواقب كان السحاب بالنسبة إليه جهاما يقول لك هامسا : إذا حمل الوادي ما تبقى فيه غير حجارته، وأهل البلدة انقسموا فريقين أحدهما رأى الربيع وشيكا كانت السنون المنصرمة مخاضا يبشر بميلاده كل شيء يحتاج إلى زمن والله خلق الأرض والسماوات في ستة أيام وتهيأ هذا الفريق للربيع تخفف من لباسه مكتفيا بالأبيض و قد أعفى كثيرون ذقونهم من الحلق وأما الفريق الآخر رأى الربيع وهما لن يحمل لا عشبا ولا ثمارا غير السراب وفي كل عام ربيع يأتي وفق سنن الطبيعة الصارمة والله الذي فتق السماوات والأرض وقد كانتا رتقا وأعطى الأرض كينونتها واحد لا

شريك له واختلف الفريقان إلى حد الخصام و السباب وربما داخل البيت الواحد من يؤمن بالربيع ومن يراه مجرد سراب!

وآمن سيدي الطاهر مدرسنا السابق بالربيع لقيني مرة وكان يحادثني ويناقشني وقد صار يصطنعني صديقا وكم كنا نتناقش حول نظرية التطور والمادية التاريخية واللاشعور وكنت مزهوا وأنا أرى صحابي والكبار يفتحون أفواههم عجبا حين أذكر أسماء غريبة كسان سيمون فرويد بافلوف وداروين ولا يخفي البعض امتعاضهم فيرد أحدهم : أعوذ بالله من تلك الأسماء أعداؤنا و أعداء نبينا " مافرطنا في الكتاب من شيء " لكن هذه المرة أغراني بالربيع وراودني عن نفسي أن أتخفف من لباسي وأستعد له قائلا :

- اسمع منذ عشرين سنة يأتينا الحمام الزاجل من جهة مشرق الشمس يحمل إلينا رسائل أخوة من أحبة القلب أنارت بصائرنا و أزالت غشاوتها كان يغافل الحارس ذا النظرة الصارمة والشنب المنضد وقد كنا جديانه يذهب بنا إلى المرعى والكمامة على فم كل جدي شهد الله أنه تعهد المرعى فأخصب لكن ثلجه الاصطناعي غطى قرميد كل بيت شمسنا الحارة لم تذبه و ظل الحمام الزاجل يتردد علينا من تلك الجهة والحارس الآخر يجلس في حضن فتاة شقراء عيناها في زرقة البحر والخد أسيل أبيض و الشفتان في حمرة الكرز إنه حارس أنيق متعطر يحب الشكولاطة كثيرا ويؤمن بكرامات الأولياء لم ينكر تردد الحمام الزاجل علينا بل صار يجلسه في حضنه ويداعب منه الرأس بأنامله المعطرة ويتركه يطير حاملا إلينا رسائل الأحبة الميلاد يوشك أن يتم هذا العام والحجر الذي رفضه البناؤون سيكون حجر الزاوية الأغصان برعمت والثلج يوشك أن يذوب في رأس الجبل فيجري الماء سلسالا مطمئنا والأرض تستعد لأن تزهر وتخضر، إنه الربيع أتذكر تلك الترنيمة التي كنا نلاقي بها الربيع ونحن صغار مع أمهاتنا :

- حاجينا و جينـــا لاقينا الربيع وجينـــا

لأنتم دخان الكوشة لحنا محارم بوشوشة سيحمل

الربيع الخير للناس و ستضيق الأرض بالجديان والحملان بلا كمائم الناس سيشبعون وسيدخرون القوت وسيشعرون بالأمان حقا لا أحد يظلم الآخر وسيكونون سواسية حقا في حضن هذا الربيع تلك الأفنان التي حطت عليها الغربان والبوم ستطير مع تلك الغانية الشقراء لتعود الأطيار في صحبة اليمام و الحجل مالئة أغصان تلك الشجرة على أن العاصفة ازدادت حدة واحتد قصف الرعد والبرق وميضه يكاد يذهب بالأبصار، الريح تسمع لها صفيرا كأنه عزيف الجن والأفق امتلأ قسطلا وعثيرا أما الناس فبعضهم ينتحب وبعضهم يصمد مبشرا بالربيع والبعض الآخر يراها سحابة صيف وظل سيدي الطاهر يبشر بالربيع يتفقد الأرض

www.Nashiri.Net

أن تخضر و الماء أن يسيل جداول والثلج قد ذاب في رأس الجبل لكن العاصفة صارت لعلعة و صليلا واحمر الأفق وجرى على الأرض شيء قاني حولها إلى ساحة حمراء غيبت تلك العاصفة الكثيرين إلى حيث لا أوبة وكان مدرسنا منهم ولم تهدأ إلا بعد لأي! القلوب واجفة والأكباد راجفة العيون دامعة والأصوات المتشنجة اجتمعت في صوت واحد مبحوح :

- الحمد الله قدر الله وما شاء فعل لامرد لقضائه هكذا ولا أكثر!

وعاد سكان البلدة يحدقون في أفنان تلك الشجرة مختلفين في رحمة متجادلين في مودة حول تلك الأطيار رآها البعض غربانا وأصر البعض على أنها اليمام وأقسم الآخرون أنها نسور وهزأ بعضهم الآخر منهم ومن قوة أبصارهم أن كانوا لا يعرفون طائر الكناري من النسر وانصرف آخرون متعللين أن بقية من عثير تمنعهم من الرؤية الصحيحة ومازالوا كذلك يختلفون من حين لآخر على أن مشقة الحياة و مغالبة تصاريف الأيام و منظر الأفق المحمر والشيء القاني الذي جرى على الأرض عوضا عن الماء المنساب جداول إذ يذوب الثلج في رأس الجبل ينسيهم ذلك كله التحديق في تلك الشجرة والاختلاف بشأنها !

أما سيدي الطاهر فلم ينسه أحد بل يذكره كل واحد كلما دق جرس الكوليج الضخم دون أن ينسى ذلك الدرس الوحيد والجميل وقد يحكي لك أحدهم نكتة سمعها منه أو قصة قصها عن بلاد القوقاز أو ذكرى من الدانوب أوأعاد على مسامعك بعضا من ألفاظه : أدق لك المنافس، هوست. وأنت اليوم إذا سألت في زمورة أحدا عن الكلمات المبنية es mots invariables l يجيبك عفو الخاطر سيدي الطاهر!

يا قمر يا عالي (١)

ما زال صوتها يرن في أذني كما عهدته على تقادم العهد وكر الأيام ، صوت عذب ممتلئ بدلال الأنوثة كامتلاء صاحبته ، وكان ذلك الصوت حين أسمعه وأنا طفل يعانق روحي ويأسرني كما أسرتني ملاحتها وقد جلاها ذلك الجسم الممتلئ البض وذلك الوجه المستدير القمحي المحمر الوجنة ، وتلك الشفتان الكرزيتان اللتان تكشفان عن أسنان بيضاء إن تبسمت ، كانت خطارتا أنفي تنتصبان كذيل قط وأنا ألقاها متمنيا أن أعانقها وأقبل تلك الشفة فأشم عبق الأنوثة وأنتشي بلذة عجيبة حين يتاخم جسدها جسدي فأحس بطراوته . ولم يكن بها من عيب إلا بعض القصر غير أن تقاسيم الوجه الحلوة والشعر الفاحم المسترسل حتى أليتها يشفع لها ذلك القصر.

كانت تكبرني بسنوات ومنها عرفت الحب وخفق القلب كجناحي طائر فرحا بلقاء المحبوب حين يلقاه ، ومنها عرفت الشوق حين أكون في المدرسة أو في الكتاب وأنا كالقابض على الجمر أنتظر الفراغ من الدروس حين يمسك حارس المدرسة *خالي الحاج* بسلسلة الجرس الكبير الذي يشبه جرس الكنائس فيرن معلنا انتهاء الدروس وأنفتل أنا من القسم ومن المدرسة مسرعا للقائها مصطنعا الأسباب في سبيل ذلك ، وفي أزقة الحي كنت أتمثل صورتها وابتسامتها الحلوة ووشوشتها في أذني أو تعليقها المازح على حدث أرويه لها ... كذاب !

أما إذا لم ألقها أحسست بالشفرة تقطع نياط القلب وبالنسر الأسود يجثم على روحي مسلما إياها إلى الوحشة، وألعب الكرة مع أترابي لنسيانها قليلا فما أفلح حتى لأخال تلك الكرة قلبي يلعب به أترابي دون مبالاة !

و كان لها أخوان يدرسان معي في الكتاب وفي نفس المدرسة ولكن في أقسام أخرى يكابدان أعباء الفهم وحل الواجبات وحفظ المقطوعات ووجدا في ضالتهما أزورهما في البيت ليلا وأنجز لهما مااستعصى عليهما في ألفة عجيبة ومرح صبياني وتشاركنا هي المراجعة والأحاديث والمرح ومرة اختليت بها وهمست في أذنها :

- أنت تبتسمين بعينيك قبل أن تبتسمي بثغرك !

فردت في خبث وكيد أنثوي :

---

(١) صدرت بمجلة الفوانيس المغربية تشرين الثاني ٢٠٠٧

www.Nashiri.Net

- مازلت صغيرا عن الغزل، اهتم بدروسك ومساعدة أخوي أحبكم أن تنجحوا جميعا.
و أردت بمنطق حبيب صغير تريد حبيبته أن تغرقه في أقيانوس اللامبالاة أن يحتفظ بمحبوبه متمسكا بتلك القشة : براعته وذلاقة لسانه فرددت :
- يهمني فرحك وسأسعى في سبيله، لا أسألك شيئا من جهتك ولا تطلبي مني الكف عما أنا فيه من الإحساس بالنشوة في حضرتك.
كنت حبيبها الصغير أحسن الكلام في الهوى وأحفظ الأشعار وأجيد كتابة الرسائل الغرامية، وفوق ذلك كله العاشق في براءة الطفولة وسذاجتها !
لا مرية أنها تمنت لو كنت في مثل سنها إذا لاكتفت بي وأراحت نفسها من هم البحث عن حبيب في مثل سنها تعد نفسها للزواج منه مستقبلا
وكان يحلو لها أن أجلس إلى جانبها إن سمحت الظروف بذلك ويزيد الموقف بهجة وإحساسا بديعا بنشوة الحب ولذة الحياة حين يشرق القمر و تطلب مني أن أغني لها تلك الأغنية التي كانت أمهاتنا تغنيها لنا ونحن صغار لننام:

يا قمـر ياعـــــالي
وصلـني لأخوالـــي
و أخوالي في مـونة
ذبحوا لي فكـرونـــة
ساح الدم من راسـي .....

وأمتثل لأمرها يخالطني ألم ممض وأنا أتأمل القمر متوسدا ركبتها ، القمر عالي حقا لكنه إلى جانبي وقمرها ما زال في ضمير الغيب ثم تعبث بشعري أو تمسح على خدي قائلة :
- لولاك لأحسست بفراغ قاتل !
ومرة لم تقل هذه الكلمة بل سألتني في خفر مصطنع وكيد ظاهر:
- ما رأيك في فلان ؟
أحسست كأن شفرة حادة قطعت نياط القلب وأصابني خور وتلعثم لساني ثم اصطنعت الهدوء واللامبالاة ورددت:
شاب ماكر يقضي يومه متسكعا مصفرا تحت شرفات البيوت يهيم بجميع فتيات البلدة ويكتب لهن نفس الرسالة !
فردت ضاحكة :
غرت منه ؟
وكان الغضب قد استبد بي حقا وأحسست أن زلزالا هد كياني وتظاهرت بعدم الاكتراث وقلت في ضحكة مستهزئة :

ولم أغار منه ليس من أترابي ثم أنه فشل في دراسته سيء السمعة يبحث عن عمل فما يجده .
كانت الدمعة قد تجمعت في عيني وكادت أن تفضحني، جاهدت في سبيل حبسها فما قدرت وسالت أخيرا على خدي ، وأدركت هي صنيعها و ربما تمنت لو لم تفاتحني في الأمر ، هدأت من روعي ولاذت آخر الأمر بالتضليل بعد أن أحزنها حالي :
لا تخش شيئا كنت أمزح فقط وأختبر صدقك، أنا لن أكون إلا لرجل صادق يرعاني ويحسن القيام بأعباء الأسرة، يقدرني ويغدق علي من فيض حبه وحنانه.
ثم أحسست بالفتور من جهتها لم تعد حريصة على أن أزورهم في بيتهم للمذاكرة مع أخويها ، وقللت هي من غشيان مجلسنا ونحن نذاكر، وطغت على أحاديثنا أسئلة عامة عن الحال والدراسة والسؤال عن الأسرة ثم تنصرف لشأنها !
ولم أعد أجد في ذلك البيت ما كنت أجده من الأنس والفرح الذي يغمر الروح والشوق الذي كان يطير بي إلى بيتهم كلما دجى الليل ، وتناثرت على صفحة السماء النجوم.
وتخابثت أنا مع أخويها، أتمارض أو أدعي التعب أو أصطنع النعاس مكتفيا بالنزر اليسير في مساعدتهم أو ربما بلغ بي الخبث مبلغه في ادعاء عدم معرفة حل مسألة، ثم أتثاءب وأنصرف إلى البيت.
عاشقان جديدان حطا كعصفورين على دوحة الحياة أما هو فأحسن تصفيف شعره والعناية بهندامه واصطنع شيئا من اللباقة والحنان، كان كلامه يسكرها ووعوده ترسم لها أفقيا ورديا متألقا واشتكى كل منهما لصاحبه تباريح الجوى وألم السهاد ولوعة البعاد في خلوة العشاق والأجساد توشك أن تنتفض متعانقة والشفاه الصادية تتوق إلى ري من منهل الحب ،ولا تسمح البنت للفتى بأكثر من ذلك، أن ينال قبلة فذلك أقصى ما يناله منها !
أكثر الفتى من المرور ببيتهم وكان مظهره لافتا للنظر وعالمه غريب عن عالم شباب الحي ، وفيهم من ترصده و أذاع أمره بين صحبه فكمنوا لهما في مكان خفي وسمعوا منها همسات الحب ووشوشات الحنين ، وعملت الضغينة والحرمان في نفوس البعض عملها فاشتكوهما إلى أهلهما وانتشر الخبر !

وللناس أسلوب واحد في التعامل مع مثل هده الحوادث يجعلون من الحبة قبة وينسجون الافتراءات ويقسمون غير مكترثين أن الوهم حقيقة في لذة عجيبة و فضول لا ينقطع وربما جذل لا نظير له !
وأقسمت الفتاة على طهارتها ودافعت عن نفسها وقد لاقت من الضيم ألوانا ومن الضرب والإهانة أصنافا، رغم عفتها.

www.Nashiri.Net

أفرت إفراد البعير الأجرب ولاذت بالوحدة ووجدت في الصمت وانكسار النظرات وطأطأة الرأس جوابا لمن ظل يدينها وتحاشت الأفراح والمناسبات ونساء الحي، ولربما سعت إلى الموت وخانتها الوسيلة ، ولربما هو الإشفاق على والديها العجوزين من تبعة الأمر ، آثرت أن تنزف لوحدها لعل الزمن تجد فيه السند فتغدو القصة طعاما لمعدة النسيان ، غير أن تلك المعدة لا تهضم هذا اللون من القصص تتقيؤه وتطرحه وتظل أفلاذا منتشرة في البيوت والأزقة وفي أحاديث الناس.

وأما الفتى فعنفه والداه وطرداه وتكفلت الأيام بإعادة الأمور إلى نصابها ، هضمت معدة النسيان قصته ، لولا أنه أحيانا كان يخوض في أحاديث مع أترابه مفتخرا بفروسيته وحباله وشباكه معددا فرائسه، وجد عملا و زوجاه والداه كشأن جميع الشباب وانشغل بتدبير حياته الجديدة ورزق الولد وأتاح له ذلك الأمن والدعة ، ولجأ إلى ما يلجأ إليه الناس حين يستقبلون هذا الطور من حياتهم يحرصون على أداء الصلاة ويتقيدون بتلك التقاليد الصارمة فتراهم يوم الجمعة ارتدوا قمصانا بيضاء وربما أرسل أحدهم لحيته وخف إلى المسجد لأداء الصلاة ، وإذا اجتمعوا في مجلس غضوا البصر إذا مرت أمامهم امرأة أو ربما عقب أحدهم :

أعوذ بالله امرأة غير مستقيمة !

فيرد الآخر:

سمعت الإمام يقول في الخطبة أن النبي -عليه الصلاة والسلام- لما اطلع على النار رأى أكثريتها من النساء !

فيعقب الآخر :

إن كيدهن عظيم ، بقرة إبليس، حفظ الله أزواجنا وستر بناتنا

فيصادق الجميع على قوله : آمين بجاه النبي

وقد مضى على الحادثة أكثر من عشرين عاما وكنت أراها نادرا وما أتيح لي أن أتأمل وجهها أو أسمع كلامها، كانت تغور في البيت كما يغور الماء في باطن الأرض ، أما اليوم فقد تأملتها مليا، تكاد تشرف على الخمسين والوالدان غيبهما الموت وانتقل أحد إخوتها إلى مدينة أخرى. أما الجسم فذوى كأوراق الخريف في نحول عجيب وحال الجمال قبحا والملاحة دمامة وذلك الوجه الوضاء ملأته الندوب والشعر الفاحم وخطه الشيب منتقما منه والنظرات ازدادت انكسارا، لفها الحزن بوشاح أسود و ربما أحست بالمسكنة في كونها عالة، ومعدة النسيان لم ترحمها، ظلت تتقيأ قصتها مصرة على عدم هضمها والجسد المرمري القمحي اللون ازداد تيبسا و نحولا والصدر الممتلئ أنوثة أصابه الانكماش والضمور !

وربما أرادت إحداهن التخفيف من معاناتها وبلسمة جرحها النازف في صمت إن تحدثت عن زواج بنت، فتستدرك :

ما زال نصيبك، الله لا ينساك وعريسك في ضمير الغيب سأذكرك بذلك في ليلة الدخلة .
غير أن ذلك كان مدعاة لسخريتها الصامتة واستمرار نظراتها المنكسرة.
رمانة نضجت في شجرة الحياة أسرت العيون بجمالها وامتلائها وأسالت اللعاب بمذاقها ،عفنتها الأيام وتصاريف الحياة فبقيت وحيدة في أحد الفروع الهرمة والنسر الأسود يحضنها بجناحيه حين أبت طيور البلدة و صقورها وحمائمها أن تجتمع بها على نفس الغصن !
ومازلت إلى اليوم كلما همت على وجهي ليلا في أزقة البلدة أو على أطراف الحقول ورفعت رأسي صوب القمر رأيت صورتها منطبعة عليه وسمعت تلك الأغنية التي كنت أغنيها لها و أنا أضع رأسي على ركبتها :

يا قمـر يا عـــــــالي
جاءت العودة تنطـحني
جا خويا يضـــــــربها
بالسكين الهنديـــــــة
واش نعطي في الديــة؟
نعطي بغلة مصـــــرية .....

www.Nashiri.Net

على باب الله (١)

عرفت جمال فيمن عرفت من صبيان الحي الذين صاحبتهم واختلطت بهم، غير أن هذا الفتى كان قد ترك في نفسي أعمق الأثر، فادخرت له في نفسي مكانة وخصصته بشيء غير يسير من التقدير والإعجاب. لم يكن كفتيان الحي يهيم بلعب الكرة أو صيد العصافير أو يسرف في العبث ، كان يظهر شيئا من الجد على حداثة سنه ، يتحاشى الكذب وخبث الطوية ، ويقتصد في صداقاته ، يحرص على دروسه في المدرسة وعلى حفظ القرآن في الكتاب، والحق أن في ملمحه الجد، إذا تأملته أدركت أن هذا الفتى سوف يصير إلى رجولة ناضجة وسوف يأتي من جليل الأعمال ما يليق بذلك الرشد المدخر وتلك الرجولة الكامنة فيه إلى حين .

في وجهه خانة تناسقت مع تلك السمرة المحببة أما الشعر فأسود ناعم ، و في الجسم بعض امتلاء يوحي بالعافية على بعض القصر في القامة الذي لا يعيبه، أدعج العينين ، وقد أتاح له ذلك ملاحة فهو يتسلل إلى مكامن الرضا من النفس ، على الرغم من رثاثة ثوبه وسرواله الذي كثرت فيه الرقع ، وكان صاحب صوت شجي يحسن به قراءة القرآن وترديد الأشعار وأداء الأغاني التي كان يحبها .

أحببت الجلوس إلى جانبه في الكتاب حين كنا نشرع في *التّزويقة * وكانت مرتان في العام الأولى قبيل عيد الفطر والثانية قبيل عيد الأضحى، نجتمع في حلقات ويتولى أمهر الفتيان رسم تزويقة العيد على لوح من لا يحسن ذلك ، وكانت رسما واحدا متكررا على جميع الألواح *ضلوع الحوت وفراش الطلبة * والشيخ يدور بيننا ينظر في لوح هذا أو يعنف ذاك على رداءة التّزويقة ، فرحا بما أحضر إليه الصبية من بيض وفطائر وقهوة .

و كان جمال من الذين يحسنون ذلك خطا ورسما فضلا عن شطارته في حفظ السور القرآنية، وترتفع الأصوات منشدة متزامنة مع ذلك العمل و تميز من بين تلك الأصوات صوته العذب الآخذ بشغاف القلب :

خط العيد خططناه
في الألواح زوقناه
شيخنا زوجنـــــاه

---

(١) صدرت بصحيفة وطن الكويتية أمريكا تشرين الأول ٢٠٠٧

خذينالو حـوريـــة
حورية في الجنـة .....
أما سحنة الشيخ فتحمر خجلا من الكلام عن الزواج فيكح أو يتظاهر بالحديث مع صبي حتى ننتهي من ترديد كلمات الزواج في الترنيمة ، فإذا اقترب موعد صلاة الظهر فرغنا من أداء التّزويقة لندخل فرحين في عطلة تمتد أياما كثيرة .
توثقت الصلة بيني وبين الفتى فهو يسأل عني في البيت وأسأل عنه وكان بيتهم قريبا من بيتنا ولم يكن له من الإخوة غير أخت تصغره ، وأما الوالدان فتقدم بهما العمر ، الأب شيخ اصطلح عليه الفقر والداء وأعيته الحاجة ،يكلمك بصوت مختنق ، وأم طيبة عجوز تتأتأ في كلامها فلا تكاد تتبينه إلا بمشقة ، تسألني عن أهلي كلما طرقت الباب أسأل عن ابنها وهي مطمئنة إلى كونه رفيقي وفي يقينها أننا جادان نجتهد في دراستنا ونتحاشى رفقة أولاد السوء .
تعلمت من جمال الاهتمام بالأشياء النادرة والاستفادة منها والاستمتاع بمباهجها وكان يقول لي على حداثة السن :
سوف يأتي يوم تختفي فيه هذه الأشياء وتغدو مجرد ذكرى
فإذا حلت ذكرى عاشوراء حرصنا على تتبع * النشّار* في أزقة الحي وهو رجل كأنه بهلول أشعث أغبر ينادي على أهل البيت فيخرجون إليه ديكا أو دجاجة يذبحها لهم و ينصرف إلى بيت آخر ، حتى ينتهي من ذلك في المساء و ينصرف إلى بلدته و معه بعض الهدايا والإحسان ، وكان ذلك دأبه كلما حلت ذكرى عاشوراء .كنا نقترب منه في شيء من الوجل والانبهار ونستعذب طقوسه ،وهو غير متضايق من وجودنا وتتبعنا إياه في أزقة البلدة.
وإذا حل الربيع خرج أهل البلدة يلاقونه كما يقولون فرحين بمقدمه يأخذون معهم زادهم والكعك الذي صنعته النسوة خصيصا لهذا اليوم وينتشرون في المروج و الحقول يصحبهم الأطفال وتتجاذب النسوة أطراف الحديث ولا يعود الجميع إلا مع الأصيل. ويأخذني جمال بعيدا نبحث عن منهل أو نرى عصفورا لم نره من قبل أو زهرة ما أتيح لنا الاستمتاع بها ، ولا يفوتنا أن نعرج على قرية مجاورة كان من طقوسها في هذا اليوم أن تحضر ضاربا على الدف وزامرا يدعى * بوسعديّة * تتدلى من خاصرته أطراف مزركشة من القماش والناس من حوله متحلقين في رقص وتصفيق و حبور لا نظير له !
صحبت الفتى سنوات عرفت منه ألوانا من المتعة وبهجة الاكتشاف على أن ذلك السرور الذي كان ينضحه قلبانا وذلك الأنس الذي كان يستشعره كل واحد منا وهو إلى جوار صاحبه لا يخلو من بعض المنغصات ، فهذه عصبة من صبيان الحي تشوش علينا وتعزم على جرنا إلى ما هي فيه من عبث كثير وكسل على الرغم من

www.Nashiri.Net

اشتراكنا معها في لعب الكرة أو سماع نكاتها الماجن والضحك معها من القلب، فيسعى الواشون بيننا لحل عرى المودة فما يستطيعون إلى ذلك سبيلا !
غير أنه إذا اشتد المرض على والده واستعصت عليه العافية وعز الدواء مع شح المؤونة، كنت ترى أثر الحزن في وجه الفتى ، نظرات حزينة منكسرة وصوت خفيض متقطع ،وفي براءة الصبا أحزن لحزنه فأسري عنه داعيا الله ملحاحا أن يكشف عنه الكرب وأعقب :
شدة و تزول ، أنت تعرف والدك يمرض ويتعافى ، جميع شيوخ البلدة هم هكذا .
فيرد في صوت مشفوع بعبراته :
-هذه المرة لن يتعافى ، اشتد عليه السعال ، أعرض عن الطعام وتقيأ دما.
ويزوره أهل الحي سائلين عن صحته داعين له بالشفاء محسنين قدر المستطاع، وتشيع *خالتي بهيجة* العواد إلى الباب الخارجي شاكرة داعية مصرة هذه المرة على أن
* الشيخ* كما تقول أيامه معدودة.
وصدق ظنها وظن ابنها ! مات الشيخ و لحقت به العجوز وبين موتهما زمن يسير وعاش الفتى بعد ذلك مع أخته وحيدين في صبر عجيب ، وفي كل زاوية من زوايا ذلك البيت المتهدم قرت الذكريات الحزينة وعششت الكآبة ولو أن أهل الحي كانوا يحسنون إليهما ويسألون عنهما إلا أن رحيل الوالدين أتى على استقرار نفسيتيهما وقضى على ما فيها من سكينة وأنس .
انقطع الفتى عن الدراسة واحتاج الأخوان إلى من يرعى شؤونهما و يقوم على خدمتهما، حزما أمتعتهما ورحلا إلى قرية نائية مسقط رأس والدهما بإلحاح من الأقارب.
غادر جمال الحي فترك في نفسي ندوبا، وفي روحي وحشة وفراغا لم يستطع فتيان الحي ملأه على الرغم من اختلاطي بهم و لعبي الكرة معهم .
وشاء الله للبنت أن تتزوج فبقي الفتى الذي أوشك أن يستقبل طلائع الرجولة وحيدا ، غير أنه في هذا الطور صار يأتي من الأمور أغربها تحاشى الناس و أهمل نفسه و ثيابه فهو يهيم على وجهه في البراري محدثا نفسه و ربما بات في العراء !كبر أكثر من سنة ، شنبه يوحي بذلك ولازم السعوط يحشو بها فمه حتى ليبدو أنه ورم.
والأعجب أنه احتفظ بعزة نفسه ظل يرفض إحسان الأقارب و يلقي بالطعام الذي يقدم إليه في الخارج، حتى ألحت عليه النحافة، وتقرحت معدته من فرط الجوع وأشرف على الهلاك !
واليوم صار من عاداته أن يأتي إلى المدينة بثيابه الرثة، سترته البنية المغبرة و قد دس رجليه في بلغة واصطنع عصا لعلها عصا أبيه، يقف أمام واجهات المحلات ناظرا متأملا متحدثا مع نفسه حينا آخر، و ربما سمعت أحد المارين يعلق :

لله في خلقه شؤون !
وربما حمل على ظهره كيسا مملوءا بنبات*الشيح* و عرض عليك حزمة صغيرة دون أن يتذلل أو يروج لبضاعته فإذا أوشكت الشمس على المغيب عاد إلى ظاهر المدينة ينتظر سيارة أو حافلة تنقله إلى قريته النائية ، و ربما نسي نفسه ودجى الليل فظل بذلك المكان في ظاهر المدينة قابعا منتظرا سيارة في قيظ الصيف أو زمهرير الشتاء حتى الصباح !
و من عجيب أمره أنه لم ينس بلدته ولا أصحابه ،مازال يذكرهم بأسمائهم و يردد على مسامعك بعض الأشعار ، و مازال يذكر *النشّار* و *بوسعديّة* و ربما أبدى بعض المرح وتبسط في الحديث مع من يعرفهم و يذكرهم و لكن إلى حين .

www.Nashiri.Net

طيــور الشمـــال (١)

ارتفع صوت المقرئ عبد الباسط عبد الصمد مجودا سورا من القرآن الكريم، صوت عذب شجي يأخذ بشغاف القلب ويأسر الروح فتهتز النفوس رغبة خالصة في النجاة ، وكان من عادة القيمين على ذلك المسجد المشرف على البلدة مسجد أبي حيدوس أن يسمعوا أهل البلدة تجويد القرآن من الأصيل حتى قبيل الأذان ، وقد قرفص بعض شيوخ البلدة بقنادرهم البيضاء يتبادلون أطراف الحديث ، يتسلون عن الجوع والعطش وعن السعوط التي حال الصيام بينها وبينهم كما حال الموت بين آدم وبين البقاء وغط بعضهم في نوم عميق ، و تسمع أحدهم يقول :

غلبني اليوم تناوب علي العطش والجوع الشديد وكية الشمة (السعوط) خاصمت أهل الدار وصحت في وجه العجوز ، كسرت الأواني و خرجت !

فيعلق أحدهم :

سي محمد غلبه رمضان

على أن هذا الشيخ كان إذا غضب لم يضبط لسانه يهيج ويثور ويخوض في سباب عجيب يستعذبه الجميع ويقهقهون له طويلا، وربما جروه إليه جرا حتى يسمعوا سبابه هذا !

و سي عبد الباقي واقف أمام إناء كبير يبيع الزلابية كدأبه بحركته الثقيلة وصوته الخفيض ، يجلبها من المدينة كل صباح حتى إذا أشرفت الشمس على المغيب لم تبق منها حبة واحدة و ربما باع بعضا منها على الحساب ، وهذا لص من لصوص الحقول يتوب في رمضان و يعود إلى السرقة بعده ،يقسم بأغلظ الأيمان أنه صائم ويقسم غيره أنه رآه يحشو فمه سعوطا ويأكل في "رأس الكاف" و هو منبع ماء خفي يقع على طرف الحقول و يقول آخر عابثا :

صائم على ضرسة (ضرس) وفاطر على خمسة ! و يضحك الجميع لذلك. و لكن لا بأس أن يتظاهر بالتعب والعطش وأن يبدي شيئا من النرفزة وهو يبيع حلوى قلب اللوز ويعلق على أحدهم قد اختار حبة حلوى :

هذه محجوزة و تلك أيضا لم يبق غير هذا الصف

---

(١) صدرت بديوان العرب تشرين الأول ٢٠٠٧ ،وفي كتاب "الفائزون" دار نجلاء محرم القاهرة٢٠٠٩

حركة دؤوب لا نظير لها إلا في هذا الشهر ، ترى البشر في الوجوه رغم أتعاب الصيام والفرح يغمر القلوب وقد اقترب موعد آذان المغرب وانتشرت في الأجواء رائحة "الشربة" و هذا عمي المدني قد جلب شيئا من التين من حقله يوزع بعضه على بعض الشيوخ وذاك آخر خف إلى العين يملأ قربة الماء ، وآخر للوضوء استعداد للصلاة والصبية يمرحون ينتظرون الآذان حتى إذا سمعوه خفوا إلى بيوتهم يزدردون طعاما شهيا لم يتهيأ لهم إلا في رمضان ويخرجون بعد الإفطار يعدد بعضهم ألوان الطعام التي أصاب منها في شيء من المبالغة و الكذب الحلو !

على أن بين تلك الجموع المقرفصة شبح يسير في تؤدة ، مطرقا أكثر الأحيان ، صموتا كدأبه ، كأنه في بحران عظيم، انسل إلى بيته وسط تلك الجموع ، شاب نحيف على عتبة الثلاثين لف جسمه في سترة زرقاء شاحبة ، لم يحلق ذقنه منذ أيام ، غير أنه إذا تكلم تبينت على الفور أن الفتى غريب بين أهله وفي لسانه بقية من عجمة ولثغة ، وربما استغرقت في الضحك ،يسمى لك شيئا باسم شيء آخر أو يذكر ما هو مؤنث ، يسمع الآذان فلا يفقه له شيئا و يرى القوم يخفون إلى الصلاة فلا يفهم ما يصنعون وتحل على البلدة مناسبات دينية ووطنية فلا يعرف لها معنى ، أما لغته الفرنسية فيتكلمها كأنه واحد من أبنائها ويدفعه البعض إلى الكلام باللسان الفرنسي حتى يستشعروا لذة لذلك وهم لا يفهمون عنه شيئا !

عاش زروق طفولته وشبابه في فرنسا بين أهله وتهيأت له موهبة أهل الفن والابتكار، في تفكيره افتنان واختلاق وقدرة عجيبة على إيجاد الحلول لعويص المشكلات، يرسم رسوما رائعة تنم عن دراية بالفن وينحت الأشكال بديعة ، لولا أنه في فرنسا خالط عصبة من رفقة السوء وأفادهم هو بما تهيأ في رأسه من مكر وفي يده من فن ، شرب المسكرات و أتى شيئا من الشقاوة، ولم يستطع أهله منعه من مباشرة أعمال السوء فأمعن في انحرافه ، وخطط لسرقة بنك كما يروى ، فسجن ثم أعيد إلى بلده الأصلي تفاديا لخطورته الناجمة عن استغلال ذكائه و مهارته الفنية في السوء.

عاد الفتى إلى البلدة مسلولا في صدره رطوبة السجن وفي خلاياه بقايا من الكحول والأفيون ، اكترى بيتا هو غرفة واحدة وكانت أشبه بالكهف جدرانها حجارة سوداء وسقفها العربي يكاد يقع على من فيه وزواياها لا تخلوا من نسيج العنكبوت وأرضيتها من الطين ،مظلمة لأنها بلا نافذة و قد هرم خشب الباب وامتلأ شقوقا و ثقوبا وكان يحلو للبعض متابعة الفتى وما يقوم به من تلك الثقوب ! ومفتاح البيت كبير وثقيل وقد تأذى طويلا من حمله. كان ذلك الكهف هو بيته تناثرت على أرضيته بعض لوازمه، موقد و بعض أواني و فراشه و دق في الحائط بعض مسامير كأنها مشجب علق بها مرآة و ثيابه القديمة ، و أحبها إليه سترته الزرقاء

www.Nashiri.Net

الشاحبة ، لا يختلط بأحد إلا لماما و للضرورة ،مطرقا كدأبه ، لم يجد بيتا يلم غربته ولا هو كان يقبل به إن وجده .
كان غريبا بين أهله لا يستشعر فرحهم ولا يشاركهم أحلامهم ولا يفقه معنى لعاداتهم وطرائق حياتهم حتى لسانه اعوج ،لا يقبل طعاما من أحد ، إلا سجائر إن افتقدها وافتقد النقود لشرائها ، يفتح باب بيته ويشرف على الفتيان المجتمعين أمامه ، يسأل أحدهم سيجارة ، فيجدها البعض فرصة سانحة للحديث معه مستغلا حاجته إلى السجائر فيبادره أحدهم :
زروق فرنسا جميلة ؟
فيرد :
هي كذلك بلد فن وعلم وحرية، الإنسان فيها محترم والقوانين تصون كرامته و تعزز حريته.
ويسأله آخر :
و لماذا عدت ؟:
فيرد في اقتضاب متحرجا : قضيت حكما بالسجن و أبعدت إلى البلد ويتفادى التفاصيل
و كيف تجد الحياة بيننا؟ :
أنتم طيبون والبلد آمن طيب، ناسه أهلي و أديمه موطني الأصلي ، لكني نشأت هناك ، روحي وعقلي ووجداني وراء البحر ، أنا نبتة مزروعة في غير أرضها ، وفلذة غريبة عن هذا الجسد !
يقول ذلك ويأخذ سجائر ثم يغلق عليه باب بيته وربما استمع إلى حديث لم يفقه فيه شيئا وقهقه الجميع وسكت هو.
ولايخلو رمضان من بعض المزاح والضحك مما يأتيه زروق فالفلفل يقلى والطعام يطهى في رائعة النهار، و يعلق أحد العابثين :
حضرته زروق يفطر على آذان الظهر !
أما شيوخ البلدة فيتحاشونه، وقع في روعهم أنه ظال ميؤوس من صلاحه ومن تدينه ، وأما فتيان البلدة فيعبثون به أو معه ، ومن الناس من يستغله ، يرسم لهم ما يطلبون أو يصنع لهم قوالب وأشكالا ، أو يكتب لهم لافتات بخطه الجميل يضعونها على حوانيتهم لقاء دريهمات معدودة لا تشبعه من جوع ولا تتيح له الإنفاق على نفسه فيما يحتاج إليه.
و ربما اشتد به الحنين إلى أهله وأصحابه وإلى ذلك البلد الذي نشأ به، فكان يشرف على العين العمومية مطرقا متأملا و يستدير نحو الشمال وفي الأجواء طيور تحلق ناحيته ، إذا رأيته أدركت فيما يفكر فيه ، إنه يتمنى لو أعاره طائر جناحيه يطير بهما إلى ذلك البلد ولو كان يعرف قول الشاعر لتمثل به :

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي
فقلـــت و مثلي بالبكاء جديـــــــر
أسرب القطا هل من يعيرجناحـــــه
لعـــلي إلى من قد هويت أطيـــــر؟

أكثر من التدخين وربما حشا السيجارة بشيء بني ، ازداد نحولا وتمكن منه الداء العياء ، تعضده عفونة البيت ورطوبته ،ثقلت عليه الحركة حتى كادت تستعصي عليه ، وألحت عليه الصفرة والنزيف والسعال ، والأرض تدور متنها كمتن جواد جامح حرن ، يلقي بالكثيرين إلى ضفاف الموت من الذين ضاق بهم ذلك المتن، وقد أشرف عليه الفتى ، و تهيأ له بالمكوث في فراشه وبالإكثار من السعال و النزف ، دافعا بعض الوحشة بالاستماع إلى الراديو لا يستجدي أحدا، يحضر إليه بعض الفتيان شيئا من الطعام أو الدواء و يسألون عن صحته مغتنمين الفرصة في تأمل زوايا الغرفة أو بعض رسومه ومهاراته اليدوية ، و يخرجون مسلمين إياه إلى الوحدة ومقاساة تباريح الداء ، حتى أفاق أهل البلدة على خير موته صباح أحد الأيام ، وقد علق بعضهم حين سمع بالخبر :

رحمة الله عليه جاء وحيدا وعاش وحيدا وقضى كذلك ولا يجلس بعض رجال البلدة اليوم وقد كانوا يومها فتيانا إلا تذكروا الفتى ومفتاح بيته الكبير في يده ، وسترته الزرقاء الشاحبة وتذكروا بعضا من نوادره حين يفطر على آذان الظهر !

www.Nashiri.Net

النافذة الصغيرة (١)

أما الاسم فغريب ولم يكلف أحد منا سؤال صاحبه أو أهله عن معناه وليس في أبناء البلدة من
يحمل هذا الاسم والعادة أن يسمى الأبناء على أسماء الأنبياء والصحابة والأولياء تيمنا بهم، أما هذا الاسم الذي لم ندرك له معنى فقد حمله فتى واحد غريب في ملامحه وفي أفعاله كما هو غريب في اسمه، فهو فتى ذو ملامح أروبية فالشعر ناعم أشقر والعينان زمردتان، وكان متوسط القامة قد كست بشرته البيضاء اللون سمرة من أثر الحر وذرع الأزقة آناء الليل وأطراف النهار وكان يقترب من الخامسة عشر وهو أصغر إخوته الأشقاء فتاة في مثل ملامحه وأخ أكبر، أما الإخوة غير الأشقاء فكانوا عشرة إضافة إلى الأب والأم والجدة والدة الأم يعيشون جميعا في بيت قديم متهالك جدرانه مطلية بالطين والقش وسقفه من الأحطاب التي فعل فيها الزمن فعله تتخلله ثلاث غرف صغيرة وفناء صغير بلا سقف نمت فيه شجرة تين اشمخرت أفنانها، وكان هذا البيت مجاورا لبيتنا وبين البيتين نافذة صغيرة تتبادل أمي الحديث عبرها مع ربة البيت وتتبادلان المنافع، إذ يحدث أن تصنع لنا أمي طعاما شهيا أو يعود أبي بثمار أو خضر طازجة من الحقل فتنادي أمي صاحبة البيت وتقدم إليها شيئا من تلك الخضر أو ذلك الطعام وهي تقول في سرها :

- واش يكفيهم !

وكذلك كانت صاحبة البيت تفعل مع أمي إذ ترسل إليها بشيء من طعام شهي أو ترسل ابنتها لتساعد أمي في شؤون البيت.

أما رب البيت فكان رجلا فارع القامة متناسق الجسم في طوله وعرضه يحدثك بانتشاء وهو يحرك رأسه الذي وخط الشيب شعره وعلى عينيه نظارة طبية، كان يقترب من الخمسين وهو ممرض الحي بالدربة دون أن يتعلم ذلك في مدرسة أو مستشفى يعطي المريض الحقن ويقيس الضغط وله محفظة كبيرة حشاها بمختلف الأدوية، كان مزهوا بعمله وبمركزه في الحي وبلقب الدكتور الذي يطلق عليه، ويحدث أن يمشي في أحد الأزقة فيلقى أحدنا فيعاينه وربما أخرج من محفظته دواء أو مرهما ولا يلبث أن يقول :

- تراخوما هذا من أثر التسكع وقلة النظافة وإهمال والديك لك أو قال للآخر :

- أنيميا يجب أن تأكل جيدا وإلا مت.

---

(1) صدرت بصحيفة وطن الكويتية أمريكا٢٠٠٧.

يقول ذلك وينسى فقر ذلك الفتى وعريه وإملاق والديه.
وكان يحلو للدكتور أن يعنف أهل الحي على إهمالهم وقذارة بعضهم فيصيح فيهم:
- اكنسوا الأزقة ورشوا الأرض بالماء، الوباء قادم وتسخر إحدى الجارات منه فتعقب:
- نعم الدكتور يوصي بذلك، اكنسوا ورشوا الأرض بالماء حتى لا نمرض، وقد عاش الدكتور زمنا في فرنسا وتزوج من فرنسية ورزق منها ولدين وبنت وعاد بهم إلى البلد، وضاقت الزوجة بالبلدة وبسوء معاملة أهل الزوج لها فلا يخاطبونها بلقب "الرومية إلا وتغامزوا فيما بينهم وعقب أحدهم الكافرة" فضاقت ذرعا بتلك العيشة والنظر شزرا فهربت إلى بلدها تاركة الزوج والأولاد وتزوج الرجل ثانية فرزق حزمة من البنات والبنين .
وقد تربى الفتى بيننا فطحنه الفقر وامتصه الجوع وربما ارتدى خرقا أما نعله فكان من النايلون فلا تطيق الجلوس إليه بسبب رائحة قدميه الكريهة، وربما أهمل نفسه أياما فيخرج إلينا في الصباح ولم يغسل وجهه أو يمشط شعره ومخاط أنفه يتدلى حتى إذا لقي أولنا صاح به :
- شويّة كسرة (قليل من الخبز) .
ويهرول أحدنا إلى البيت فيحضر إليه بغيته، حتى إذا شبع عاد إلى تهكمه وبذاءته وكان بيننا مثالا للحيلة وسوء الطوية فلا يؤتمن على كلام أو سر، ويعلق بعضنا :
- عيناه تضمران السوء والغدر .
كان يسخر من كل شيء من أسرته ومن الناس والحياة، شديد الضحك محب الأنس، خفيف الروح، وقد أشركنا في بذاءته وعلمنا خبث الطوية وسرقة الأشياء من البيت وصرنا تلامذته، يقضي يومه متسكعا في الأزقة أو لعب الكرة، وكنا نلعبها في أحد الأزقة ويصل هو متأخرا فيصر على اللعب فيدعوه أحدنا إلى التروي والصبر فيأبى ذلك ويعقب:
- ألعب وإلا انحرّم (أي أفسد عليكم اللعب) .
ويضطجع في وسط الملعب ويتوقف اللعب ولا يستأنف إلا بإشراكه على مضض.
وربما أراد إضحاكنا وتسليتنا إذ وجد شيخا متمددا تحت جذع شجرة فيخفي له برنوسه، أو وجد أتانا في مرعى ركبها وتجول بها وأصحابها يبحثون عنها !
وقد أخفق في دراسته، أدخله أهله الكتاب فقلبه مسرحا يعابث هذا أو يحكي لآخر نكتة أو يطلب سعوطا في إلحاح شديد ليحشو بها فمه كأن تحت شاربه ورم، أو ربما يضرب الآخر خلسة، ويتعمد إخراج ريح من بدنه فينقلب جو الكتاب نتنا فنغرق في الضحك ويسكتنا الشيخ صائحا منكرا:
- من فعل هذا ؟ لعنة الله عليه، ابن ال...

www.Nashiri.Net

وهكذا لم يحفظ في الكتاب سورة وكان الشيخ لا يسأل عنه وربما أنكر في طويته أن يقرأ هذا الرومي القرآن، وكما أخفق في الكتاب أخفق في دراسته في المدرسة فكان يستثقل حمل الكتب والكراريس ويلعن المدرسة وأصحابها وكم ضربه معلم المدرسة لأنه لم يحفظ الأنشودة أو لم ينجز واجباته فما ينال منه بالضرب ولا أرجعه إلى جادة الصواب، وكان يبث الفوضى في القسم يراقب السنونو إذا دخلت القسم أو يتأمل ثمار أشجار المدرسة (الكوليج) في شغف ويخطط لسرقة بعضها ليشبع جوعه وربما تمرد عن الذهاب إلى المدرسة فلقي بعضنا ونحن في الطريق إليها فأغرانا وراودنا عن أنفسنا لنذهب معه إلى صيد العصافير ويخرج الفخ من جيبه ملوحا به وربما استجاب له أحدنا وأبى الآخرون فيلعنهم ويلعن معهم المدرسة والمعلمين ويقضي يومه في الخلاء ناصبا فخه منتشيا بالغناء والأمل بصيد عصفور جميل حتى إذا يئست منه المدرسة أخرجته من رحابها وفرح هو بطلاقها واعتبره نصرا مؤزرا .

وأفاء الله على البلدة ذات عام بالكهرباء، فاختفت الشموع والقناديل ومصابيح الزيت والغاز، وتوفر بيتنا على تلفاز وكان البيت الوحيد الذي يتوفر عليه في الحي، فتحول بذلك إلى " دار سينما" كان إذا دجى الليل وتناول أهل الحي عشاءهم، خفت إلى بيتنا النسوة يصطحبن أولادهن لمشاهدة مسلسل "زينة وعامر" أو "سيف بن ذي يزن" أو فيلما مصريا، وكان هو في جملة من يأتي عاشقا لبنت أتت مع أمها أو معابثا و مهرجا إذ كان لا يحب إلا أفلام رعاة البقر، ويقلد في الصباح أبطالها، وفي يده عظم فك لمعزاة أو شاة على هيئة مسدس ويختفي في أحد الزوايا حتى إذا قدم المار خرج إليه فجأة بمسدسه صائحا فيه : هوليمان (ارفع يديك إلى الأعلى) ويحدث أن يكون المار شيخا أو كهلا فلا يلبث أن يصيح فيه:

- لعنة الله عليك ، ابن ال... ويجري وراءه ولكن هيهات أن يدركه !

وهو إذ يشاهد التلفاز مع جموع النسوة والبنين في بيتنا يملأ الأرض بصاقا من أثر السعوط ولا يستلذ إلا تلك اللقطات التي يهم فيها البطل بتقبيل حبيبته، إذ تخجل بعضهن وتحمر وجنة فتاة أخرى وتتخابث أخرى فتميل على جارتها تسألها عن الوقت وعينها الأخرى على التلفاز حتى لا تفوتها اللقطة وتكح الأخرى، أما نحن كنا نستلذها ونتمنى طولها وبيننا الحبيبات مع أمهاتهن أما الفتى فلا يفوته التهريج وبذئ الكلام ونحن نتفرج فينخسه الآخر محذرا إياه أن تسمعه إحداهن .

وأقبل رمضان ذات صيف حار فكنست الشوارع وفرشت أرضية الجوامع بالفرش، وتهيأ الناس لاستقباله وكنا نفرح بمقدمه فرحا لا نظير له فبعضنا كان صغيرا ولا يحمل نفسه على الصيام فيطلق يديه صباحا فيما تبقى من سحور أهل الدار، وفي رمضان سمر وأنس لا يتاح في باقي الشهور يخرج البلدة من رتابة الحياة بها .

وقد أعفى نفسه من مشقة الصيام ولكنه فاجأنا بقندورته البيضاء – لباس التقوى والإيمان -

وأخبرنا أنه قرر أن يصلي في رمضان ويريح الحي من عربدته وعبثه طيلة الشهر الكريم وقهقه بعضنا وحوقل آخرون، حتى إذا جاء موعد صلاة العشاء والتراويح جاء ليصلي بلا وضوء وقرفص مع شيوخ الحي وأبنائه في الجامع قبل الصلاة يرددون تلك الابتهالات العذبة في صوت واحد :

- اللهم صل وسلم على النبي محمد وآل المحمد سيد الرجال المفضل يا بحر الكمال والجمال يا محمد .

ويتعمد الجمع إدخال "أل" على محمد لتمام الغنة.

أما هو فكان ينتشي بذلك الإيقاع الشجي ويحرك رأسه طربا حتى إذا قام المصلون لأداء الصلاة عاد إلى شيطنته وعبثه فاستثقل قراءة الإمام وإطالته وكان يقرأ في كل ليلة حزبين فيحدث أصواتا يحاكي فيها القط أو الكلب والإمام يقرأ والمصلون في خشوع أو ربما ضرب هذا خلسة، أو نتف شعر رأس الآخر إذا سجد المصلون أو تعمد إخراج ريح من بدنه فنغرق في الضحك حتى إذا سلم الإمام طرده أحد الشيوخ ولعنه فخرج فارا بجلده ولا يعود إلا في رمضان القادم !

وظل ذلك دأبه التشرد في النهار مع مقاساة الجوع وسؤال أحدنا كسرة خبز والشيطنة واختراع الحيل والأكاذيب والعبث بشيوخ الحي وعجائزه حتى وقعت الواقعة وحدثت في البلدة والبلد فتنة كبرى وانقسم الناس شيعا وأحزابا وكانت نهاية القرن أشأم من البسوس سالت دماء كثيرة فلم يعد له في البلدة بقاء وقد تعدى سن الرشد ، حزم أمتعته ورحل إلى فرنسا بلا أوبة .

اختفى الهرج والضجيج في ذلك البيت بعد أن رحل عن الدنيا من رحل وغادر البلدة من بقي وحل السكون الموحش محله، فلم تبق غير الجدران وسقف البيت وأرضيته شاهدة على تلك الأيام الخوالي أيام الخصاصة والمسغبة ولو أنها كانت أياما حلوة يرين عليها الضحك والتعاون بين أبناء الحي فقد كانوا قلبا واحدا وروحا واحدة متحدين على تصاريف الزمان وشدائده، وكنت إذا دخلت بيتنا الطويل المشمخر الجدران، الفارغ من أهله أيضا استوحشت المكان وانتابتني قشعريرة وأنا أمثل في حضرة صاحب الجلالة –الزمن- وأرى صنيعه في الأحياء والأشياء ولا تفوتني البادرة أن أنظر إلى تلك النافذة الصغيرة التي كانت همزة وصل وحبلا سريا بين بيتين تبادلا عبرها المودة والإحسان والحكايات وأذكر عبرها قهقهات تلك الأيام ومرحها وأحداثها الحلوة على ما كان فيها من ألم وإملاق وحرمان .

www.Nashiri.Net

سيرة ذاتية



الاسم : إبراهيم مشارة
تاريخ الميلاد :٢١شباط١٩٦٧
مكان الميلاد: برج زمورة
البلد: الجزائر
الوظيفة: مفتش التربية الوطنية
الإيميل:brahim.mechara@gmail.com
الهاتف:٠٧٩٢٣٨٩٧٨٧
العنوان:حي الحدائق شارع ب ل رقم١٦ برج بوعريريج ٣٤٠٠٠
المستوى:الدراسات العليا/ قسم اللغة العربية والأدب العربي
التخصص: قصة ، شعر ،دراسات نقدية
صدرت مقالاته ودراساته ب :
*الشروق اليومي: الجزائر
*اليوم :الجزائر
* الشهاب :الجزائر
* التبين : الجزائر (الجاحظية)
المنار العربي: الجزائر
*العربي :الكويت
*الجيل : بيروت
* أخبار الأدب : القاهرة
*ا لمعرفة : دمشق
*الشرق الأوسط : لندن
* ديوان العرب
*المغترب العربي : كندا
* صوت العروبة : أمريكا
*المنهل : السعودية
*أقلام ثقافية : فلسطين
*الرافد : فلسطين
*العالمية : المركز العربي الأمريكي للدراسات والنشر
*مجلة صهبل
*صحيفة فضفضة
*مجلة انهار : الكويت

:مجلة الفسطاط : الكويت
*مجلة وقفات : السعودية
* مجلة الساخر
*جريدة العدالة العراقية
* وكالة الأنباء العربية : عمان
*الرافد : الشارقة
*ناشط بملتقى الأدباء والمبدعين العرب
* الرابطة العربية للثقافة
*رابطة أدباء الشام
نشر شعره ب :
*بوابة الشعراء
*موسوعة الشعر العربي بن زابن
*أبيات كم الكويت
*ضفاف
*قصايد
صدر له كتاب وهج الأربعين وزارة الثقافة الجزائر تشرين الأول٢٠٠٧
جائزة القصة القصيرة اتحاد الكتاب العراقيين٢٠٠٧
جائزة الاستحقاق ناجي نعمان الأدبية، بيروت أيار ٢٠٠٨

www.Nashiri.Net